

The Conscious and Unconscious Collective Mind: Implications and Repercussions for Religious Belief

Ali Al-Asadi

Assistant Professor of Jurisprudence and Islamic Knowledge, Al-Mustafa International University, Iraq.
E-mail : ALIALASADI1966@gmail.com

Abstract

Many researchers see the collective mind as a drawback for nations, primarily because individuals within it tend to follow others blindly, without thinking for themselves. Some even call this a "herd mentality," where individual thought disappears and actions become unconscious, controlled by the group. Each group often believes that its unity is right and that everything else is wrong and dangerous. But this completely negative view isn't accurate or helpful. We can distinguish between a "conscious collective mind," which is based on facts and good reasons, includes smart, aware, and creative people, and supports practical ideas that benefit society; and an "unconscious" one, based on chaos and ignoring individual thought, which harms national unity and the discipline of people. So, this study, which describes and analyzes the issue, concludes that we can accept the collective mind, but only the "conscious collective mind" – and we should engage with it. When smart people come together and focus on the same goals, it helps the nation move forward. The collective mind of leading figures is the best kind for guiding the nation, embracing genuine religious thinking, which builds strong societies and fills gaps in human relationships in all areas. It's a positive force that improves the nation, unlike the unconscious collective mind, which can corrupt it unless controlled.

Keywords: Collective Mind, Herd Mentality, Crowd Psychology, Conscious, Unconscious, Individual Behaviors.

Al-Daleel, 2025, Vol. 7, No. 4, PP .38-71

Received: 03/01/2025; Accepted: 07/02/2025

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)



العقل الجمعي الواعي واللاواعي.. الآثار والتداعيات على الاعتقاد الديني

علي الأسدي

أستاذ مساعد في قسم الفقه والعارف الإسلامية، جامعة المصطفى العالمية، العراق.

البريد الإلكتروني: ALIALASADI1966@gmail.com

الخلاصة

يعدّ العقل الجمعي نقطةً سلبيةً في مسيرة الأمم عند أغلب الباحثين، معتقدين أنّ السبب الرئيسي في هذا التوجّه هو أنّ أفراد هذا العقل تابعون لغيرهم من دون وعي ولا شعور، حتّى وصل الأمر ببعضهم إلى وصفهم بـ"ظاهرة القطيع"، فغياب العقل والتصرّف بلا وعي تعني وجود عقل يعمل في ضمن عقل الجماعة، ويظهر في تصرّفاتهم، فكّل جماعة تعتقد بأنّ ارتباطها الجماعي هو الحقّ، وما عداه ضلال وخطر على البشرية، وهذا بإطلاقه وعلى نحو السالبة الكليّة غير تامّ ولا يمكن قبوله؛ إذ يمكن تقسيم العقل الجمعي إلى "عقل جمعي واعي" قائم على الأدلّة والبراهين ويضمّ عناصر منظّمة وواعية ومبدعة، وتتبنّى أفكارًا عمليةً قيّمةً، ولها آثار وتداعيات إيجابية على مسيرة المجتمع، وآخر "لاواعي" قائم على الفوضوية والغاء العقل الشخصي، وهو سلبى الآثار على تكامل الأمة وانضباط أفرادها؛ ولذا كان بحثنا هذا بحثًا وصفيًا وتحليليًا أوصلنا إلى نتيجة مفادها أنّه يمكن قبول العقل الجمعي على نحو الموجبة الجزئية، وهو "العقل الجمعي الواعي" والتفاعل معه؛ لأنّ تجميع عقول الأفراد وتوحيدهم في الأهداف والغايات عند نخب المجتمع يمثّل انطلاقةً تكامليةً في الأمة، فالعقل الجمعي النخبوي يمثّل أفضل أنواع العقول الجمعية في قيادة الأمة، ويتبنّى الفكر الديني الأصيل الذي يعدّ البناء الأمثل لتكامل المجتمعات، ويسدّ الفراغات في الاجتماعات البشرية على الأصعدة كافّةً، وهو عقل إيجابي صالح يقوم الأمة ولا يفسدها بخلاف العقل الجمعي اللاواعي الذي يفسد الأمة، ما لم توضع ضابطة تتحكم بتصرّفاتة.

الكلمات المفتاحية: العقل الجمعي، ظاهرة القطيع، سيكولوجيا الجماهير، الواعي، اللاواعي، سلوكيات الأفراد.

مجلة الدليل، 2025، السنة السابعة، العدد الرابع، ص. 38 - 71

استلام: 2025/01/03، القبول: 2025/02/07

الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلّف



المقدمة

تعيش الأمم وهي تسعى لبناء مجتمع متكامل يرتقي إلى المراتب العليا على وفق الأسس الصحيحة، وتخوض الصراعات من أجل التفوق في جميع الأصعدة، ولا إشكال في أن التفوق الفكري والعلمي لأبناء الأمة يشكّل نقطة التحول في الخريطة المجتمعية، فترك أبناء أغلب الأمم هذه الثنائية وانغمسوا في شوائب الدنيا، وضاع عليهم الحق، وشاع فيهم الجهل، فدخلوا في متاهات الظلام، واستحبوا الحياة السائبة التي لا هدف لها ولا كمال، فتهافت الأخلاق وتحرك الناس في مسارات الاحتراق (الحروب) فلا عقل يرشدهم ولا حكمة تروّضهم، بينما نجد أن بعض الأمم قد انقسم أفرادها بين الالتزام بهذه الثنائية - فشكّلت جماعات النخب التي تساهم بشكل كبير في رقي الأفراد وتكاملهم - وبين من تركها فسار في ركب الجهل والظلام، وهؤلاء هم الأغلبية العظمى من الأشخاص، فشكّل كل منهم عقلاً جمعياً يتحرك على وفق الأهداف التي يتبنّاها والغايات التي يريد الوصول إليها، وفي ضوء هذا التجمّع فقد الفرد عقله الشخصي، وسار ضمن العقل الجماعي؛ ولهذا عدّ بعضهم العقل الجمعي بإطلاقه يشكّل خطراً محدقاً بالأمة فرفضه رفضاً قاطعاً مستنداً في ذلك إلى الخطورة التي يحملها هذا العقل الجمعي، والسلبيات التي يتضمّنها، وإمكانية استغلاله من قبل من كان قادراً على إدارته وتسييره؛ لذا يمكن أن نطرح السؤال التالي: هل العقل الجمعي بإطلاقه يشكّل خطراً وتهديداً للأمة؟ وعلى فرض ذلك هل من الممكن إدارته بالصورة الصحيحة وتحويله من كونه سلبياً إلى مصافّ الإيجابيات؛ ليكون عنصراً في التكامل والبناء أم لا يمكن ذلك؟ والسؤال الأخير ما الآثار والتداعيات التي تحصل من العقل الجمعي على الاعتقاد الديني؟ فكلّ هذه الأسئلة وغيرها قد أجبنا عنها في هذه المقالة التي أسمينها بـ "العقل الجمعي الواعي واللاواعي.. الآثار والتداعيات على الاعتقاد الديني" لنصل الى النتيجة التي تفصل بين العقل الجمعي النخبوي الذي يمثّل جمعاً إصلاحياً تكاملياً وبين العقل الجمعي الشعبوي الذي يشكّل الخطر على الأمة ومستقبلها، ولكن مع ذلك يمكن لنا السيطرة على هذا العقل الجمعي وإدارته وفق المصلحة العامة للمجتمع، وجعله عقلاً مساعداً في بناء الفرد أولاً والأمة ثانياً، وكلّ هذا سيّضح لك من خلال هذه المقالة.

المبحث الأول: التعريف بمفردات البحث

قبل البدء ببيان مباحث هذه المقالة لا بدّ من التعرض إلى توضيح معاني بعض المفردات التي وردت في العنوان، كالعقل الجمعي الواعي واللاواعي لغةً أولاً، ثمّ تعريفهما اصطلاحاً ثانياً.

أولاً: العقل الجمعي الواعي واللاواعي لغةً واصطلاحاً

1- العقل الجمعي الواعي واللاواعي لغةً

لكي يتّضح المعنى بصورة كاملة للعقل الجمعي الواعي واللاواعي في اللغة عند القارئ؛ لا بدّ من تفريق المصطلح إلى مفاهيم عدّة: كالعقل والجمعي والواعي واللاواعي.

أ- العقل لغةً

عرّف العقل لغةً بأنه «ضدّ الحمق، أو هو العلمُ بصفات الأشياء من حُسْنِهَا وقُبْحِهَا وكَمَالِهَا ونُقْصَانِهَا، أو هو العلمُ بخير الخَيْرَيْنِ وشرّ الشَّرَّيْنِ أو مُطَلَقٌ لأُمُورٍ أو لِقُوَّةٍ بها يكون التَّمْيِيزُ بين القُبْحِ والحُسْنِ [الزبيدي، تاج العروس، ج 15، ص 504]. وقيل: «العقلُ: الحِجْرُ والتُّهْيُ، ضدُّ الحُمُقِ والجمع عُقُولٌ... ورجل عاقِلٌ وهو الجامع لأمره ورأيه... وسُمِّيَ العَقْلُ عَقْلاً لَأَنَّهُ يَعْقِلُ صَاحِبَهُ عَنِ التَّوَرُّطِ فِي المَهَالِكِ، أَي يَحْبِسُهُ» [ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 458]. ويمكن القول إنّ العقل يُستعمل في جميع هذه المعاني.

ب- الجمعي لغةً

وهو مشتقٌّ من الاجتماع، والناشئ من جمع الأفراد بعضهم إلى بعض والجمع: «جَمَعَ الشَّيْءَ عَن تَفْرِيقَةٍ يَجْمَعُهُ جَمْعًا وَجَمَعَهُ وَأَجْمَعَهُ فَاجْتَمَعَ... وَجَمَعْتُ الشَّيْءَ إِذَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا. وَتَجَمَّعَ القَوْمُ: اجْتَمَعُوا أَيضًا مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا» [ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 53].

ج- الواعي لغةً

وهو مأخوذ من وعى: أي حفظ وفهم، وعى الشيء والحديث يعيه وعياً، وأوعاه حفظه وفهمه وقبله، فهو واعي، وفلان أوعى من فلان أي أحفظ وأفهم. [ابن منظور، لسان العرب، ج 15، ص 396]. وقال الطريحي: «الوعيُّ بتشديد الياء: الحافظ الكيس الفقيه العالم،... وما وعى ما حفظ من معرفة الله تعالى، ومنه حديث عليّ عليه السلام: "لو وجدنا أوعيةً أو مستراحاً لقلنا"، أي قلوباً تحفظ الحق وتعقله» [الطريحي، مجمع البحرين، ج 1، ص 444].

د- اللاواعي (الباطن) لغةً

اللاواعي كلمة أصلها من "لاوعي" وهي في صورة اللفظ المفرد تقع نفيًا لما في لفظة الوعي، فتكون بمعنى نفي الفهم والحفظ، وهو كل ما يظهر من الإنسان من دون وعي ولا فهم ولا شعور من قول أو فعل، وقد يوصف باللاشعور أو الباطن والذي يراد به "الجوف أو المحتجب".

[انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 55]

2- العقل الجمعي واللاواعي اصطلاحًا

أ- العقل الجمعي الواعي اصطلاحًا

عُرّف العقلُ الجمعيُّ الواعي بتعريفات تصبّ كلّها في معانٍ متقاربة، ف قيل إنّه «هو الذي ينشأ من اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض، واحتكاك أفكارهم، وتقابل وجداناتهم ونزعاتهم، وهو وضع خاص له مستلزماته ومقتضياته، فيتّجه بهم وجهاتٍ معيّنة في مختلف شؤون حياتهم، وفي علاقة بعضهم مع بعض» [حبّيش، طه، الأخلاق في إطار النظرية التطورية، ص 132]. وعرفه دوركايم (Durkheim) بأنّه: «صورة من المعتقدات والتصورات والقيم والعواطف والمشاعر الجمعية المشتركة بين أفراد الجماعة، وتشكّل قوّة أخلاقيّة واجتماعيّة تفرض هيمنتها على عقول الأفراد وضمايرهم» [دوركايم، الانتحار، ص 61].

ب- العقل الجمعي اللاواعي (القطيع) اصطلاحًا

قد يراد من العقل الجمعي اللاواعي ما قابل العقل الجمعي الواعي والتي هي تجميع للعقول اللاشعورية والمعبر عنها بـ «مخزن الأفكار التي مرّت بنا ونسيناها، ولا تظهر إلّا في أحوال غير عادية» [وحيد الدين خان، الإسلام يتحدّى، ص 28]، أو هي اجتماع للعقول الباطنة والمعروفة بأنّها "مركز للعواطف والانفعالات ومخزن للذاكرة"، فالعقل الباطن يمثّل جزء الأرشيف للعقل، فهو يحتوي على المعلومات والصور المخزّنة كقوّة [انظر: توني، قوّة عقلك الباطني، ص 13]، أو قد يطلق عليه في بعض الأحيان صفة "القطيع" والمقصود به التجمعات البشرية التي تنقاد بلا وعي، فهو مصطلح انتشر تداوله بين الناس لوصف هذه التجمّعات تشبيهاً لها بحالة الحيوانات المنساق خلف بعضها البعض من دون أي تفكير أو إرادة، فالقطيع البشري (Humam Herd) يطلق في المجتمع الإنساني على «جماعة من الأفراد تحرّكها رغبات مشتركة تتبع زعيماً وتتميّز بضعف التنظيم وأنماط الرقابة ... ويقال روح القطيع - وهو المعنى المراد - (Herd spirit) لرغبة بعض الأفراد في أن تتّبع بصفة عمياء معتقدات وأساليب الجماعة» [أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص 193].

فالقطيع إذن هو سلوك جماعي من قبل الأفراد وتصرفهم من دون إرادة ووعي، وإنّ سلوكهم خاضع لتوجّهات الجماعة التي ينضون تحتها، وبعبارة أخرى هي تغلب العقل الجمعي السلبي واللا شعوري على العقل الفردي والانقياد له من غير إرادة ولا تفكير.

ثانياً: الفرق بين العقل الواعي والعقل اللاواعي

لا إشكال في أنّ هنالك فرقاً بين العقل الواعي واللاواعي؛ ولهذا الفرق ثماره الكبيرة التي يمكن أن تحصل على صعيد بيان الشخصية الحقيقية للإنسان، أو على صعيد التوجّه الفكري له، فمنذ طفولته إلى نهاية حياته يحتفظ بمجموعة هائلة من الأفكار والتصورات والعادات والمواقف التي تمرّ به، وتبقى جميع هذه الأمور موجودةً في ذاكرته وإن نسيها بعد حصولها بفترة وجيزة، إلا أنّ هذا لا يعني نفيها وحذفها من خزين العقل؛ إذ من الممكن إعادة تذّكرها مرّةً أخرى وإن طال زمانها، فإنّ هذا الكمّ الهائل من هذه الأمور التي عرضت على صفحات حياة الإنسان إنّما يتمّ حفظها وخزنها عنده؛ لذا يمكن القول إنّ لكلّ إنسان عقلين: عقلاً آنيّ التعامل مع المعلومة الواردة وقد يعبر عنه بالعقل الواعي، وعقلاً خازناً للمعلومات الواردة على العقل الواعي، وهو ما يطلق عليه بالصندوق الأسود للإنسان، ويعبر عنه بالعقل اللاواعي، ولكلّ منهما دوره في ترتيب مسيرة الإنسان، فبالإضافة إلى دورهما في جانب الوظائف الإرادية وغير الإرادية لأجزاء البدن الإنساني المختلفة، فكذلك لهما دور في جانب التفكير واستقبال المعلومة الواردة عليهما؛ ولذلك يمكن القول إنّ هنالك فوارق بين العقلين في الجانب الأخير يمكن إيجازها بأمور عدّة:

1- بما أنّ العقل الواعي آنيّ التعامل مع المعلومات الواردة؛ لذا تقع عليه مهمّة التفكير والتحليل والتخطيط بخلاف العقل اللاواعي، فلا علاقة له بكلّ هذه الأمور، وإنّما مهمّته تخزين المعلومات الواردة على العقل الواعي وأرشفتها، فوظيفته إذن جمع المعلومات وتخزينها ليعيدها إلى العقل الواعي عند الحاجة إليها، ولا علاقة له في معالجة المعلومات الواردة إليه وتصحيحها؛ لأنّ هذه وظيفة العقل الواعي عند استرجاعه للمعلومات المخزونة. [انظر: توني، قوّة عقلك الباطني، ص 10]

2- أنّ العقل الواعي (الشعوري) إنّما يكون عمله في حالة اليقظة والانتباه بينما العقل اللاواعي (اللاشعوري) يكون عمله في حال اليقظة والنوم معاً، فهو يعمل طوال اليوم بلا توقّف.

[انظر: المصدر السابق، ص 9]

3- أنّ مهمّة الأمر والنهي والتوجيه والإرشاد تقع على عاتق العقل الواعي؛ لذا فمن مهامّه أن يقوم بعملية التحليل والتفكير، بينما مهمّة العقل اللاواعي تكون في تنفيذ ما يقوم بتحقيقه وإقراره من قبل العقل الواعي، فمهمّته تنفيذية. [انظر: فان فليت، القوة الخفية للعقل الباطن، ص 10 و11]

4- إذا كان من مهامّ العقل الواعي التحليل والتفكير، فهذا يعني أنّه لا يقبل إلاّ المعلومة الصحيحة والصائبة، فله أن يقبل الفكرة أو يرفضها، بينما العقل اللاواعي يقبل المعلومات الصحيحة والخطئة على حدّ سواء؛ لأنّه الخازن للمعلومات؛ إذ يقوم بتخزين جميع آراء الفرد وتوجّهاته، وبناءً على هذا يكون التفكير السلبي أو الإيجابي في ضمن ما يخزنه من آراء. نعم، يمكن أن يكون لتكرار المعلومة جانب من قبولها في العقل اللاواعي على أنّها حقٌّ وهي الصحيحة.

[انظر: توني، قوّة عقلك الباطني، ص 249 و250]

وهناك فوارق أخرى بين العقلين، بيد أنّا اكتفينا بما ذكرناه تلبيةً للاختصار واقتصاراً على موارد الحاجة.

المبحث الثاني: أقسام العقل الجمعي

يعدّ العقل من أهمّ مصادر الدراسات الفكرية والعلمية، فأصبح دوره في حياتنا وتأثيره على تفاعلنا مع المحيط أعمق وأوسع، فتحققت لدينا رؤية في تفاعل العقل مع التجارب والعوامل التي تؤثر في المعلومات واتخاذ القرارات أكثر وضوحاً؛ لذا فالعقل يمكن أن يعزّز مجالات الابتكار والإبداع، وهذا الكلام ينصبّ على العقل الشخصي أو الفردي، ولكن اجتماع تلك العقول الشخصية سيشكّل عقلاً جمعياً، فهل يمكن من اجتماعها أن تحقّق هذا التكامل والرفق أيضاً أو لا يمكن لها ذلك لاختلاف العقول الشخصية فيما بينها؟ والأقول في ذلك مختلفة، فأحدها يذهب إلى أنّ العقل الجمعي فيه من الآثار الإيجابية الكثيرة، ويمكن أن يحقّق التقدّم والرفق؛ لأنّه يعدّ عقلاً متكاملًا، فيما ذهب الآخر إلى سلبيته وخطورته؛ لأنّه سيجعل العقل الشخصي فاقداً لكلّ مقومات الاستقلال، فيكون تابعاً للآخرين ومسلوب الإرادة والاختيار فيصبح حاله كحال القطيع الذي يساق من غير إرادة، ولكن يبقى هذا الكلام وغيره في مدى صحّته أو عدمها متوقفاً على بيان أقسام العقل الجمعي، وأيّ الأقسام يمكن أن يكون إيجابياً وأيّها يكون سلبياً، وقد اعتمدنا في وجه التقسيم هنا على جانب العمومية والخصوصية في الاجتماع أولاً وثانياً من حيث وصف مقام الاجتماع، وكلّ ذلك سيظهر من خلال تقسيم العقل الجمعي إلى قسمين في ضوء الترتيب المذكور في وجه التقسيم:

أولاً: العقل الجمعي الشعوري (الواعي) والعقل الجمعي اللاشعوري (اللاواعي)

لا إشكال في أنّ العقل الفردي يشكّل الأساس في تكوين العقل الجمعي وهو المحور الرئيس فيه، إذ إنّ العقل الجمعي إمّا أن يكون ناشئاً من اجتماع العقول الفردية ومشاركتها في قضية ما أو هدف موحد، وإمّا أن تكون هذه العقول منقاداً ومسلوبة الإرادة وتابعةً لعقلٍ فرديٍّ قائدٍ معيّن أو قضية معيّنة، وثمة فرق بين الاثنين، فالأول أنّ العقل الفردي يبقى محتفظاً بذاته وإرادته، وكلّ

ما في الأمر هو حصول إجماع واجتماع لهذه الإرادات على قضية أريد تحقيقها، أو هدف مطلوب لجميع هذه العقول الفردية، وهذا الأمر يمكن أن يكون قريباً من "الشورى" في الإسلام، فكلّ العقول تبقى محتفظةً برأيها الفردي، فإن تطابقت الآراء شكّلت عقلاً جمعياً هادفاً يحقّق الوصول إلى النتيجة المطلوبة، وإلا تعارضت واحتفظ كل عقلٍ بفكره وإرادته. وأمّا الثاني فالعقل الفردي فيه يكون مسلوب الإرادة، فهو تابع لما أريد له أن يكون، سواء كانت تابعيته لعقلٍ بذاته أو قضيةً بذاتها من دون أيّ تدخّل لإرادة الفرد فيها، فهيجان المشاعر للجماعة قد جرفته كما جرفت غيره - لهذا قلنا عنه إنه تابع لغيره - وقد يُعبّر عن العقل الجمعي اللاواعي (اللاشعوري أو الباطني) في بعض الأحيان بـ "ظاهرة القطيع" تشبيهاً له بسلوك القطيع الحيواني الذي يتحرّك من غير إرادة منه، وإثماً يجرّكه الراعي أو المسير الجماعي للقطيع، وقد يصدق هذا الوصف على القطيع البشري (humam Herd) الذي يطلق في المجتمع الإنساني على «جماعة من الأفراد تحرّكها رغباتٍ مشتركةٌ تتبع زعيماً وتتميّز بضعف التنظيم وأنماط الرقابة... ويقال روح القطيع - وهو المعنى المراد - (Herd spirit) لرغبة بعض الأفراد في أن تتّبع بصفة عمياء معتقدات وأساليب الجماعة» [أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص 193]. ويعدّ هذا العقل من أخطر العقول مطلقاً، فهو يقع على شفير حدّين متضادّين من القضايا التي يتعامل معها، فقد يتعامل مع القضايا الصادقة والحقّة، وبالتالي يصل إلى الهدف الصحيح فيكون إيجابياً، وكذلك يمكن أن يتعامل مع القضايا الباطلة والمنحرفة فيصبح سلبياً ويكون سبباً في انهيار أعظم المنظومات الفكرية والعقدية، ففي هذا العقل ينطوي الصالح والطالح والحقّ والباطل، بينما نجد العقل الواعي (الشعوري) خلاف ذلك؛ لأنّه يتعامل مع القضايا الآنية في ضوء التفكير والتحليل للمعلومات الواردة إليه؛ فلهذا قلنا إنّ الأوامر تقع على عهده، وقد مثله بعضهم بربان السفينة الذي يتمتّع باليد العليا في قيادة السفينة، فهو من يوجّه كلّ الأنشطة على ظهر المركب؛ إذ يصدر الأوامر لجميع أفراد السفينة، كذلك العقل الواعي، فهو السيّد الذي له سلطة إصدار الأوامر، بينما العقل الباطن مثله كمثل طاقم السفينة الذي يأتمر بأوامر الرّبّان. [انظر: فان فليت، القوّة الخفية للعقل الباطن، ص 10 و11]

وبما أنّ فيه خزناً من المعلومات الإيجابية والسلبية فقد وصفها مايرز (Meyers) بقوله: «إنّ العقل الباطن يحتوي على منجم من الذهب وكومة من الأقدار أيضاً» [الوردى، خوارق اللاشعور، ص 38]. والمقصود من هذا القول هو أنّ العقل الباطن يضمّ في جنباته مبادئ الخير والشرّ والأفكار الصحيحة والخاطئة والمعلومة النافعة وغير النافعة، فلو فرضنا أنّ عقلاً جمعياً لاواعياً تشكّل في منظوره السلبى من هذه العقول اللاشعورية التي تحمل الفكر الخاطىء، فانظر ماذا سيحصل، خصوصاً إذا كان هذا العقل منقاداً من أصحاب الفكر المنحرف، فلا إشكال في أنّ الطامة ستكون كبيرةً، والانحراف سيكون

واسعاً، بينما لو تشكل العقل الجمعي من العقول الواعية (الشعورية) التي تتمتع بالمنهج التحليلي والتفكير العلمي القائم على التخطيط الصحيح، فسيكون هذا العقل بناءً وذا انطلاقة صحيحة في التوجيه الفكري والعقدي القائم على الإرادة الحرة التي يتبناها كل عقل فردي من أفراد العقل الجمعي، وبالتالي يمكن أن يكون سنداً ومعيناً ليصحح التوجه الفكري والعقدي للأمة وأفرادها، ومن هنا يمكن القول إن العقل الجمعي الشعوري والواعي هو أفضل من العقل الجمعي اللاشعوري واللاواعي. نعم، يمكن أن يكون العقل الجمعي اللاشعوري نافعاً ومفيداً فيما لو كان في مصاف أهل الحق ومؤيِّداً لفكرهم وتوجههم، وإن لم يكن يرادته من باب "حشر مع الناس عيداً"، وهذا الأمر كما يكون مع الجانب الإيجابي من الاختيار كذلك يمكن أن يكون الميل إلى الجانب السلبي.

ثانياً: العقل الجمعي الحاكم (السلطوي) والعقل الجمعي للنخب (النخبوي) والعقل

الجمعي الجماهيري (الشعوي)

تتفاوت المجتمعات في تركيبة أفرادها سواءً في الجانب الفكري أو الاجتماعي أو غيرها وهذا التفاوت يستلزم ظهور مجموعات من الأفراد تتحرك في نطاق معين خصوصاً في حركات المجتمع؛ لذا تتشكل جماعات تمثل كل جماعة مجالاً معيناً وتحمل فكراً خاصاً لتشكل بذلك عقلاً جمعياً يستقطب أتباعه ويحصن نفسه أمام العقول الأخرى، فترى مثلاً في الجانب السلطوي الحاكم هنالك من المؤيدين الذين يرتضون بإفعال هذه الطبقة ويحيطون بها ويدافعون عنها، إما إيماناً بفكر هذه الطبقة، وإما المصلحة تقتضي الوقوف معهم كالانتفاع المادي، فهم بجانبهم ما دام النفع المادي موجوداً، وإلا انفصوا عنهم، فاجتماع هؤلاء إذن خاضع للمصالح؛ ولذا فمن الممكن تشكيل عقلٍ جمعيٍّ يدافع دفاعاً مستميتاً عن الجهاز الحاكم في البلد، ويحمل أفكاره ويؤيده في كل شيء، سواءً على نحو الإيجاب أو السلب، فهؤلاء بموقفهم هذا وطاعتهم يشكلون عقلاً جمعياً حاكماً أو سلطوياً، وهذا العقل كما يكون طالحاً وفساداً يمكن أن يكون صالحاً ومؤمناً، فهو تابع لهرم السلطة الحاكمة؛ لأنّ "الناس على دين ملوكهم" ولهذا فجماعة هذا العقل يرون ما يرى الحاكم ويعتقدون ما يعتقد.

وفي مقابل هذه الجماعة وهذا العقل تظهر فئة من نخب أبناء المجتمع تتقارب أفكارهم وآرائهم ويحملون عقولاً منظمةً، وواعيةً ومبدعةً، وتتبنى أفكاراً عمليةً قيّمةً؛ لتنظم مجالات العمل والنهوض الفكري والعقدي والتصدي للانحراف والوصول بالأمة إلى بر الأمان وتحصيل الكمالات لها؛ لتكون قادرةً على المسير الناجح في قيادة نفسها بنفسها، وهؤلاء هم خيرة أبناء الأمة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الفئة وأمر بتشكيلها في ضمن آياته، فقد قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: 104] ليتشكل من خلال هذه المجموعة العقل الجمعي النخبوي الذي

يساعد في بناء القاعدة الفكرية والعقدية للأمة وتوجيهها للصواب، وكذلك سيقوم بتنظيم العقل الفردي بما يُصلحه ليكون سندًا في بناء العقل الجمعي النخبوي الذي يؤهله لقيادة الأمة في المجال التنفيذي أو التشريعي، فكل ذلك يمكن أن يقع على عاتق هذه النخبة، ولا إشكال في أنّ هذا العقل الجمعي يعدّ أفضل من سابقه؛ لأنه يضمّ خيرة أبناء الأمة من أصحاب العقول المتكاملة أو شبهها، وبما أنّ هاتين المجموعتين أو العقلين لا يمكن لهما استيعاب جميع أفراد المجتمع، فكلُّ منهما يأخذ نصيبه منهم، ويبقى الكمّ الهائل من الناس لا ينتمون لأيٍّ من الجماعتين المتقدّمتين، فهؤلاء يمكن أن يكونوا إحدى الفئات الثلاث أدناه:

أ- أن يشكّلوا عقلاً جمعياً جماهيرياً مستقلاً.

ب- أن يميلوا مع أحد الطرفين (العقلين) المتقدّمين على نحو التأييد.

ج- أن يعملوا مع طرف ثالث خارجي.

ولذا فالعقل الجمعي الجماهيري أو الشعبوي بحدّ ذاته يمثل مكمّن الخطر، لأنّ أتباعه يرجّحون كفة الجهة التي يؤيّدونها لكثرتهم، وقد وصف أمير المؤمنين عليه السلام في بعض أقواله خطورة غلبتّهم؛ لجهلهم وقلة المعرفة عندهم، فعبر عنهم تارةً بـ "الهمج الرعاع" كما في قوله عليه السلام: «الناس ثلاثة: فعالم ربّاني ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق، يميلون مع كلّ ربح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق» [نهج البلاغة، الحكمة 147]. وهذا التقسيم الثلاثي الذي ذكره أمير المؤمنين عليه السلام يتطابق تمام التطابق مع تقسيم العقل الجمعي، فعبر بـ "عالم ربّاني" إشارةً إلى القيادة والحاكمة التي بيد العلماء، وذكر القسم الثاني بقوله: "متعلّم على سبيل نجاة" وهؤلاء يمثلون النخبة المؤمنة من الأمة، بينما وصف القسم الثالث بـ "الهمج الرعاع" إشارةً إلى البقية من الناس الذين يمثلون العقل الجمعي الشعبوي الجماهيري الخالي من العلم والمعرفة (أي أنّ غالبيتهم من الجهلة وضعفاء العقول؛ لكونهم من العطلة وأصحاب المهن البسيطة). وتارةً أخرى ذكر عليه السلام هؤلاء من خلال تمييزهم ببعض الصفات كما في الحديث الذي بيّن فيه "صفة الغوغاء" قائلاً: «هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرّقوا لم يعرفوا. وقيل: بل ما قال عليه السلام: هم الذين إذا اجتمعوا ضرّوا، وإذا تفرّقوا نفعوا! فقيل قد عرفنا مضرّة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ فقال: يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه» [نهج البلاغة، الحكمة 199]. ويمكن القول أيضاً: «لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساؤوا هلكوا. وقيل إنّ معناه أنّهم إنّما يتساوون إذا رضوا بالتقص وتركوا التناؤس في طلب الفضائل ودرك المعالي، وقد يكون ذلك خاصّاً في الجهل؛ وذلك أنّ الناس لا يتساوون في العلم، وإنّما يتساوون إذا كانوا كلّهم جهّلاً، وقيل أراد بالتساوي التحزّب والتفرّق والآل يجتمعوا على إمام

ويدعي كل واحد الحق لنفسه فينقرد برأيه» [ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج 2، ص 427]. لذا فمن الممكن أن يتحوّل هؤلاء الناس - وهم كمّ هائل من الأفراد - إلى ظاهرة قطع يتبعون الغير من دون وعي ولا فكر؛ لأنهم من ضعفاء العقول، وقد غلبهم الجهل، فهم لم يستنبروا بعلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فهم يسايرون الرأي العام في المجتمع الذي يكون أحد الأسباب في حصوله وتشكيله هو الإعلام، وما نراه اليوم هو أنّ الإعلام بيد السلطة الحاكمة أو بيد الأعداء الذين يعملون بكلّ جدّ لتكوين هذا الرأي العام والسيطرة على عقول الناس وتجميعها في عقل جمعي واحد يسهل إدارته والتعامل معه في أيّ وقت يريدون؛ ولذلك من غير الصحيح التجمّع مع هؤلاء والوقوف معهم خصوصاً في جانبهم السلبي؛ لذا ينبغي «تجنب التجمّع والغوغاء، فإنّ الغوغاء لا شعور لها ولا فكر، وكثيراً ما تُميت الحقّ وتحيي الباطل» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 16، ص 394]. ولهذا قلنا إنّ هذا العقل الجمعي اللاواعي يشكّل خطراً كبيراً على جميع الأصعدة، وقد شبه هذا العقل الجمعي بظاهرة القطيع التي تسير بلا وعي ولا فكر.

المبحث الثالث: عوامل نشوء العقل الجمعي الواعي واللاواعي (القطيع)

تمثّل انطلاقة الشعوب نحو التكامل هدفاً سامياً تسعى له الأمم مهما وصلت أو تدنّت في الرقي؛ لذا تتقارب الأفكار والآراء نحو تشكيل تجمّعات إنسانية، كلّ تجمع يسعى إلى تحقيق الهدف الذي يريد تحقيقه من خلال منهجيته التي يرى أنّها هي المنهجية الصحيحة التي توصله إلى ذلك الهدف؛ ولذلك تختلف المقدمات والعوامل في نشوء كلّ تجمع، وهذه العوامل جميعها تقرب الكثير من عقول الناس إلى بعضها في التجمّعات لتشكّل عقلاً جمعياً، سواءً كان على نحو الإيجاب أو السلب، ثمّ إنّ قوّة العقل الجمعي وسطوته بقسميه تابعة إلى الهدف المراد تحقيقه والعوامل التي نشأ منها؛ لذا فهو يختلف من جماعة إلى أخرى ومن مكان وزمان إلى آخر، وكذلك الآثار المترتبة على كلّ حركة من حركات جماعة تلك العقول الجمعية - وهذا ما سنتناوله في المباحث الآتية - وهنا لا بدّ من الوقوف على العوامل التي من خلالها ينشأ العقل الجمعي بكلا قسميه الواعي واللاواعي:

أولاً: عوامل نشوء العقل الجمعي الواعي

لا يختلف اثنان في أنّ كلّ إنسان يسعى - بحسب ما يراه - نحو التكامل وبناء الشخصية الراقية والمثالية في نظره، فكّل مقومات النهوض بالواقع الشخصي للأفراد موجودة، إلا أنّ هنالك بعض الموقّات التي قد تتدخل في منع وصول بعضهم إلى مراحل الكمال وإن سعوا إليه، فالمقتضى

في الرقيّ والتكامل عند الإنسان موجود - كما يقولون - ولكنّ المانع أيضاً موجود، وهو ما يحدّ من حركة الإنسان وتدرّجه الصعودي، إلا أنّ هذا لا يوقف الإنسان من أجل تحقيق أهدافه، بل انطلاقتّه توجب وصوله إلى مبتغاه، ومن الواضح أنّ هذا من مقوّمات التكامل الشخصي، ولكن لو أردنا أن نؤسّس للتكامل الجمعي والوصول إلى العقل الجمعي النخبوي فالأمر لا يختلف كثيراً، خصوصاً إذا كان هذا العقل الجمعي هو عبارة عن تجميع عقول الناس على وفق الوحدة في الأهداف والغايات وفي ضوء المنهج البرهاني والتحليلي الذي يتمتّع به كلّ فرد من النخب، ولكن يبقى الكلام في أنّه كيف يمكننا أن ننشئ عقلاً جمعيّاً نخبويّاً واعياً، وما العوامل التي تدخل في تكوينه؟

1- البناء الفكري القائم على الدليل والبرهان

يعدّ البناء الفكري للفرد القائم على الحجّة والبرهان من العناصر الأساسية في تصحيح المسار التكاملي للأمة والذي يضمن اتّخاذ القرارات الصائبة والمستندة إلى الدلائل القويّة، فهو تقييم المعلومات المتاحة، ويساعد في تحديد قوّة هذه الأفكار والمعلومات وصحّتها، وبالتالي يمكن توضيح النتائج الحاصلة للآخرين وإقناعهم بالآراء والمواقف المؤدّية إلى صحّة الأدلّة التي نعتمد عليها وقوّتها، ومن خلالها يمكن أن نصل إلى تحقيق الأهداف والغايات؛ لنضمن بذلك القوّة في إقناع الآخرين من جهة ومن جهة أخرى تعزيز جانب الوثوق في العناصر الفكرية المعروضة، فالقوّة الفكرية حقيقة موضوعية تتجلّى فيها رفعة الإنسان الواقعية والمؤثّرة على جميع مرافق الحياة البشرية، والتي تعالج في الوقت نفسه جميع مشاكل العقل الجمعي وسلوك أفرادها لتؤسّس عقلاً جمعيّاً نخبويّاً قائماً على البناء الفكري الصحيح، والذي يتوافق مع الفكر الديني القويم والمستند إلى الجوانب العملية؛ لأنّ الأمة كلّما ارتفعت بفكرها عن واقع التنظير المجرد، وتوجّهت نحو المعالجة العملية لأسباب انحطاطها، كانت أكثر قدرةً على التأثير في الأفراد واجتذابهم وربطهم بالأفكار الصحيحة المتمثلة بالإسلام القويم، بوصفها معالجاتٍ دائمةً تستطيع النخب أن تتحرّك في ضوئها لجمع العقول المتوافقة في النتائج والأهداف، فأصحاب العقول يجتمعون فيما لو توحدت أهدافهم وتوافقت آراؤهم، فهم يتميّزون بفهم وفكر واعيين يتوحّد من خلالهما الإدراك والشعور، فيتّصفون بعقلية التفكير العميق الذي يخضع للبرهان والتحليل ليشكّل عاملاً قوياً وأساسياً في حصول العقل الجمعي النخبوي الواعي.

2- التربية الصالحة والتعليم الصحيح

تمثل التربية الصالحة في تنشأة أبناء المجتمع - سواء التربية الأخلاقية أو الفكرية - ركناً مميّزاً لتصحيح مسيرة الشخص في هذه الحياة؛ إذ يمثل الخلق الحسن والبناء الفكري والعقدي السليم انطلاقةً صحيحةً في توحيد أبناء هذه الأمة من خلال الانسجام التام في التعامل مع الغير في جميع القضايا الفكرية والأخلاقية؛ لذلك تجد المجتمع الذي تسوده هاتين الصفتين يتكامل ويرتقي في جميع المراتب، فإذا أضفنا التربية الصالحة إلى التعليم الصحيح فإن أغلب المشاكل - إن لم نقل كلها - ستختفي من الأمة؛ لأنّ الشخص الذي يتميز بهاتين الصفتين سوف يتمتع بالقدرة الكبيرة في التعاطي مع القضايا المختلفة بفاعلية كبيرة وبتركيز ذهني واسع؛ إذ تنشأ من خلالهما فرصة سانحة لاكتساب المعارف بطرق عديدة، وقد ساعدت التقنية الحديثة في الانفتاح على العالم الخارجي، وتحصيل العلوم والمعارف المختلفة؛ حتى تمكن الفرد من تطوير مداركه وتوسيعها، فأصبحت الأخلاق والتعليم عاملين رئيسيين في اكتساب الأشخاص مهارات التفكير والنقد والسلوك، وأنّ العلم الممزوج بالأخلاق الحسنة يساعد في تعزيز ثقة الإنسان بنفسه ويؤمن بقدرته، فيصبح منفتحاً للحوار مع الآخرين فيشاركهم بآرائه ومعارفه ليساهم في انتشار العلم بين جميع فئات المجتمع، وبالتالي يمكن تحوّل المجتمع من كونه بدائيّاً إلى مجتمع حضاري قائم على التحليّ بالمعارف والعلوم ليصبح أكثر حكمةً وتمييزاً، ممّا يؤثّر في وصول المجتمع إلى الرقيّ والتقليل من نسبة الجهل والسفاهة وقلّة الوعي إلى درجة كبيرة، وبالتالي يخلو المجتمع من أسباب المشاكل المستندة أغلبها إلى الجهل والخلاف الفكري لبدأ التحرك نحو تحسين قيم المواطنة والإدراك عند الناس، وهذا يتناسب طرديّاً مع مستوى التعليم والبناء الخلقي وكيفيتهما، فيصبح الفرد على معرفة تامة في كيفية بناء مجتمع أفضل؛ ليساهم في ارتقاء القيم الصالحة التي تنمو مع نموّ الوعي عند أبناء الأمة، والمؤدية إلى رفع مستوى الإدراك الكامل عندهم لجميع الأحداث المحيطة، سواء الداخلية منها أو الخارجية بصورة أفضل؛ ليصبح لدينا مجموعة كبيرة من النخب التي تمتلك رصيذاً علمياً وأخلاقياً لتقوم بدورها في حماية المجتمع وقيادته، ومن خلال هذه النخب يمكن تأسيس عقل جمعي نخبوي قادر على إدارة الأمور، وتأسيس مجتمع تكاملي واعي، فالتربية والتعليم ركنان أساسيان في تكوين العقل الجمعي النخبوي، وهنالك عوامل أخرى تساعد في نشوء العقل الجمعي الواعي، ولكن اكتفينا بما ذكرناه حرصاً على الاختصار.

ثانياً: عوامل نشوء العقل الجمعي اللاواعي

1- العادات والتقاليد الاجتماعية

ساهمت العادات والتقاليد - وهي الموروث الاجتماعي القيمي المتراكم عبر مئات السنين والمؤثر في ثقافة المجتمع - في تشكيل ثقافات وسلوكيات عند الناس، توجّههم إلى معتقدات وأفكار موروثية قد تشكّل في بعض الأحيان عائقاً أمام تكاملهم، فمع كون بعضها ينافي مقرّرات الدين إلا أنّ الناس يحشرونها في الدين ليجعلوها جزءاً منه، مع التشدّد في التمسك بها، فأصبحت تفرض سيطرتها على عقول الأفراد والجماعات لتبني سلوكيات داخل المجتمع، فيصبح الإنسان سجين هذه العادات، وهذا الأمر نراه في الكثير من مجتمعاتنا؛ لذلك كانت العادات والتقاليد السلبية قد تجاوزت الحدود وامتزجت بالطقوس والطباع الثقافية والفكرية والعرفية؛ لتصل إلى قنوات ورؤى عند الأفراد لا يمكن تغييرها؛ لأنها أصبحت ذات قيمة في المجتمع وجزءاً لا يتجزأ من هوية أبنائه وشخصيتهم، وشكّلت حالاته الفكرية والنفسية والاجتماعية، فأصبح الفرد في ضوء قنواته بها متسائلاً أو عدوانياً، وقد تمتزج في مداخل الحياة لتصبح الحياة من خلالها أفضل أو تتحوّل إلى الأسوأ؛ لأنّ هذه العادات والتقاليد أصبحت قواعد راسخة في الكثير من مجتمعاتنا، إلى درجة أنّ من يخالفها قد يتعرّض للوم أو الحساب والعقاب المجتمعي بحجّة خروجه عمّا هو متعارف عليه كموروث يجب عدم المساس به، فلا يجرؤ أيّ إنسان على تغيير شيء من عادات مجتمعه التي وصلت إلى درجة التقديس، ولا يقبل مخالفتها، بل على الجميع اتباعها؛ ولهذا تكون بعض العادات عائقاً أمام التفكير والطموح، سواء الفردي أو الجمعي «فهذه العادات والتقاليد تسيطر على الإنسان من الخارج، ومن ثم فإنّ سيطرة كلّ من هذين الأمرين - العادات الوراثية والتقاليد الاجتماعية - تختلف في واقع الأمر أشدّ اختلاف عن سيطرة الآخر» [دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ص 44]. فأصبح المؤيّدون لتفعيل العادات والتقاليد في المجتمع كثيرين؛ ليشكّل ذلك عاملاً أساسياً في تكوين العقل الجمعي اللاواعي ليرتبط الفرد بها ارتباطاً وثيقاً ويدافع عنها ولا يسمح بمخالفتها، حتّى وإن كانت غير صحيحة ومخالفة للدين الحنيف.

2- التربية المجتمعية

يمثّل الفرد الجزء الأهمّ في المجتمع، فيتأثر ويؤثر في المسيرة المجتمعية، فهو يشكّل الركن الأساس في تكوين البيئة المجتمعية؛ ولهذا فهو ينشأ في ظلّ هذه البيئة بمختلف ألوانها وتنوع بناها، فيعاش قيمها وقوانينها ويتأثر بعاداتها، ويساير جميع تعقيداتها ومشكلاتها وما تحتويه من الاختلافات

والتناقضات في الأفكار والمفاهيم، وفي ضوء هذه التعقيدات تتشكل التكتلات والتوجهات في المجتمع، وقد تصبح الشراكة بين تلك الجماعات أمراً غير ممكن؛ لأنّ كلاً منها يتبع الدور الذي يؤديه في المجتمع، سواءً كان سلباً أو إيجاباً، وبالتالي سيؤثر في بناء شخصية الفرد في ضمن هذه الجماعة أو تلك، وكذلك التأثير فيها، لتصبح عملية بناء هوية الفرد في بعدها الاجتماعي من أهم ألوان التربية حسّاسيةً وخطورةً؛ لأنّ التربية المجتمعية ما هي إلاّ حصيلة ما يجنيه الفرد من التعلّم بمجرد استقراره في بيئة معيّنة، وفي مجتمع معيّن، وزمان معيّن، وما يكتسبه الفرد من ألوان التفكير والفعل والسلوك، صحيحاً كان أو خطأً، ومن ثمّ تبني المعايير وتتخذ المواقف؛ ولهذا نجد أنّ تربية الفرد إمّا أن تتوافق مع التربية المجتمعية وتنخرط في توجهاتها أو تكون على خلاف معها وقطيعة؛ لأنّ التربية التوافقية هي «العملية التي تتشكل من خلالها معايير الفرد ومهاراته ودوافعه واتجاهاته وسلوكه... لكي تتوافق وتتفق مع تلك التي يعتبرها المجتمع مرغوبةً ومستحسنةً» [اليسوي، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، ص 209]، بينما نجد أنّ التربية غير التوافقية بين الفرد والمجتمع هي التي لا تنتمي إلى المجتمع فيحصل الاختلاف بين الطرفين، وبالتالي سيكون تأثيرها سلبياً عليهما، وسيؤثر ذلك في المسيرة التكاملية لكلّ منهما، وهذا ما سيؤدّي إلى تشكيل جماعات تختلف في توجهها وفي أفكارها، بل وحتى في ثقافتها؛ لتتلاقح أفكار كلّ فردٍ مع غيره من أفراد المجموعة؛ لتشكل عقلاً جمعياً قد يتوافق مع التربية المجتمعية السائدة في الأمة أو يختلف معها، فهذه التربية المفروضة على الفرد من خلال دخوله مع الجماعة تصبح ذات تأثير كبير في رسم خارطة مسيرته في الجوانب الفكرية والثقافية؛ ولهذا عدت التربية المجتمعية عاملاً مهماً في تشكيل العقل الجمعي اللاواعي الذي يسير أفرادها في مركب واحد والكلّ يكون فيه تابعاً.

3- النفسية المهزومة

يعيش الإنسان في المجتمع وهو يبني مستقبله من خلال مسيرته الحياتية مع باقي الأفراد ليضع اللبنة الأساسية للتكامل والرفاهية في الأمة؛ ليكون عنصراً فعالاً ومؤثراً في مستقبلها، ولكن هناك بعض أفراد المجتمع ممن يشعرون بالاحتقار والانهزام النفسي ممّا يجعلهم يشكّلون عبئاً كبيراً على المجتمع، وهذا الانهزام النفسي سببه إمّا التربية الأسرية من أولى بداياتها أو المجتمع الذي قد يكون قاسياً في بعض الأوقات على الفرد؛ ليزرع في نفسيته حالة الاحتقار والانهزام، وقد أمرنا القرآن الكريم والرسول الأكرم أن لا نصبح سبباً في تكوين النفسية الانهزامية للإنسان المسلم، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ بئس

الإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَانِ﴾ [سورة الحجرات: 11]. وعن النبي الأكرم ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، حسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم» [ابن حنبل، مسند أحمد، ج 2، ص 311]. وأمَّا القرآن الكريم فقد كانت كلمته فضلاً؛ إذ نهى عن السخرية من الناس والاستهزاء بهم والتنازب بألقاب الاحتقار ولمز الناس بالعيوب، وهو ما يعرف اليوم بـ"حالة التنمر". وعلى كلِّ حال إذا أردنا تقييم الشخصية الانهزامية فإننا نجد لها ضعيفةً سلبيةً متشائمةً، وحياةً صاحبها عبارة عن مجموعة من الأخطاء، وكثيراً ما يكون محبباً وكسولاً ومتردداً، فهو ينحني أمام أضعف المشكلات، ولو دققنا أكثر في هذه الشخصية لوجدناها اتكاليةً ومهملةً تنتظر من الآخرين التصدي للأعمال؛ لأنها مسلوقة الإرادة ويعيش صاحبها في ضياع، فهي شخصية متصفة بكل الصفات السلبية؛ لذلك فهي:

أ- غير قادرة على تحمل المسؤولية والنهوض بالمهام، فتكون تابعة لغيرها؛ لأن كل شخصية تكون مسلوقة الإرادة وليس لها ثقة بنفسها لا يمكن لها أن تنهض بالمسؤولية الملقاة على عاتقها وتفشل في أي مهمة تناط بها، فهي غير قادرة على تحطّي الصعاب أو تحمّل المشاق؛ لأنها تعيش الهزيمة في داخلها، فهي تخشى المواجهة، ولا تقبل التحدي خوفاً من الهزيمة.

ب- شعورها بالنقص والاحتقار المستمر؛ لكونها شخصية فاشلة في المجتمع لا دور لها في أي بناء تكاملي، وهذا الفشل أثر فيها سلباً، فجعلها شخصية ضعيفة الهمة مضطربة نفسياً، ولا تعدّ عضواً فعالاً في تكامل المجتمع. ولسداجة فكر صاحبها وثقافته تجده في أكثر الأحيان - إن لم نقل كلها - يقع في الخطأ والزلل، ولا يوزن الأمور بموازينها، ويؤسس رأيه على أبسط الاحتمالات.

ج- التمحور مع المهزومين والتحرك معهم في أي مهمة يريدون القيام بها، فتوجهات الشخص تتأثر بالجلساء والرفقاء، فإذا كان جلساء الشخص ورفقاؤه منهزمين مثله فسيشكّلون عقلاً جمعياً، يديرهم الجهل وتتحكم بهم الأهواء، وقد حدّثنا الشارع المقدّس من مجالسة مثل هؤلاء ومصاحبتهم، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال رسول الله ﷺ: المرء على دين خليله وقرينه» [الكليني، الكافي، ج 2، ص 375، الحديث: 3]. وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «لا عليك أن تصحب ذا العقل وإن لم تحمد كرمه، ولكن انتفع بعقله، واحترس من سيئ أخلاقه، ولا تدعن صحبة الكريم وإن لم تنتفع بعقله، ولكن انتفع بكرمه بعقلك، وافرر كل الفرار من اللئيم الأحمق» [المصدر السابق، ص 638، الحديث: 1].

د- الاستسلام وعدم التضحية في سبيل الأهداف السامية، وقد مثل القرآن الكريم هذه الصورة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة المائدة: 24]؛ لأنّ الانهزامي لا هدف نبيلاً له في هذه الحياة ليضحي من أجله، بل يريد العيش في هذه الدنيا والطلب لحطامها بأيّ كيفية كانت، حتى مع الذلّ والاحتقار والتزلّف؛ لينال من فتات الدنيا ما يسير به حياته، مع أنّ «حب الدنيا رأس كلّ خطيئة» [المصدر المتقدم، ص 317، الحديث 8]. فكلّ هذا سيدفع هذه الشخصيات الانهزامية لتتجاذب مع بعضها البعض لتشكّل عقلاً جمعياً لأنّ الطيور على أشكالها تقع، فيكون الانهزام النفسي عاملاً في تكوين العقل الجمعي اللاواعي.

4- الإعلام الموجّه

تشكّل وسائل الإعلام - المقروءة منها أو المسموعة أو المرئية أو وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة كالفيديو والتويتروالإنستغرام وغيرها من الوسائل الأكثر شهرةً في العالم - عاملاً مؤثراً في تشكيل البناء الفكري والمعرفي وتأسيس رؤية للفرد أو المجتمع تجاه القضايا الكونية أو الأيديولوجية، وهذا مجد ذاته قد يساعد الأشخاص في قدرتهم على التحليل والتفكير لاتخاذ السلوك المناسب حول القضايا المهمة، وفي الوقت نفسه لها القدرة على تغيير سلوك وأنماط المجتمع الثقافية والاجتماعية، سواءً على نحو الإيجاب أو السلب؛ لأنّ تأثيرها في الكثير من الأحيان يكون قوياً جداً، وهذا في الحقيقة يتوقّف على مدى رغبة الفرد المتلقّي في إشباع تطلّعاته بما يتفق مع أفكاره وتوجّهاته، وهذا الأمر سيجعل من الأجهزة الإعلامية أداةً لبث كلّ ما من شأنه أن يحدّد الرأي العامّ لصالح القضايا التي يتبنّاها النظام الإعلامي المسيطر عليه من قبل أصحاب النفوذ في المجتمع، ويكون دائماً موجّهاً نحو وجهة نظر واحدة، وهذا ما يسبّب في انعدام المصادقية لما تنشره هذه الوسائل، والغرض من ذلك هو أولاً السيطرة على فكر الجماهير وثقافتهم وفرض النفوذ عليهم وتغيير قناعاتهم، وثانياً توجيه الجماهير في تحركاتهم نحو الأهداف المرسومة، وثالثاً الترويج للمصالح العامة والخاصة للفئات المسيطرة في المجتمع، ورابعاً إشغال الناس وحرفهم عن الحقيقة، وهذا ما سبّب في:

أ- التدهور الكبير في المستوى الفكري والثقافي لأبناء المجتمع والتحكم بأنماط التفكير عندهم.

ب- الفوضى العارمة التي تصيب المجتمع وإشاعة الانقسام بين أفرادها وانتهاك القوانين المسنونة.

ج- الانهيار الكبير والواسع للأسس الأخلاقية عند أفراد المجتمع وزرع أخلاق جديدة بديلة.
 د- السيطرة على عقول الناس وغسل أدمغتهم وإشغالها بما يبعدها عن مجالات الإبداع والابتكار على جميع المستويات. ومن هنا يصحّ القول إنّ وسائل الإعلام بكلّ مسمّياتها يمكن أن تصبح عاملاً فاعلاً في تأسيس العقل الجمعي اللاواعي الذي يتحرّك على وفق ما يريده ويتبنّاه أصحابها، وهذا ما لمسناه في الكثير من البلدان التي تحرّكت جماهيرها على وفق متبنيّات من يدير وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي. وفي ضوء كلّ ما ذكرناه يمكن القول إنّ كلّ هذه العوامل سوف تؤسّس العقل الجمعي اللاواعي الذي يجمع الغالبية العظمى من أفراد المجتمع، وتكون في صفّ واحد، وتتبنّى منهجيةً تنقاد من خلالها في أيّ مرحلة لتحقيق الأهداف التي رسمت من قبل المسيطرين على حركة هذا الكمّ الهائل من الأفراد عبر غرس العقيدة والفكر في عقولهم؛ ليصبح هؤلاء الناس أداةً للتغيير إلى إحدى الحالتين الأحسن أو الأسوأ. وبهذا نكون قد ذكرنا بعض العوامل المساعدة في نشوء العقل الجمعي اللاواعي، وإن كان هنالك عوامل أخرى يمكن أن تساعد في نشوئه، ولكننا اكتفينا بما ذكرناه.

المبحث الرابع:

الطرق الممكنة في معالجة نشوء العقل الجمعي اللاواعي وفنّ إدارته

تختلف الآراء حول إمكانية التحكم بالعقل الجمعي اللاواعي - الذي يعدّ من أخطر أنواع العقول الجمعية، بل هو الأخطر على الإطلاق خصوصاً في الجوانب الفكرية والعقدية التي تمثّل الانطلاقة الرئيسة نحو التكامل والرقّي - أو عدم إمكان ذلك لكثرة أعداد التابعين له من السواد الأعظم في المجتمع؛ لأنّ السيطرة عليه وعلى تحرّكاته تكون في غاية الصعوبة، وهذا الكلام وإن كان في النظرة الأولية صحيحاً، ولكن لو دققنا في تفاصيل العقل الجمعي، فإنّه يمكن القول إنّ هذه النظرة غير تامّة؛ إذ إنّ من الممكن التحكم بهذا العقل سلبيّاً أو إيجابيّاً على نحو القريب أم البعيد من خلال عاملين أساسيين هما:

أولاً: طرق مواجهة عوامل نشوء العقل الجمعي اللاواعي

من الممكن السيطرة على العقل الجمعي اللاواعي من خلال مواجهة عوامل نشوئه - فعوامل النشوء التي ذكرناها سابقاً هي العادات والتقاليد الاجتماعية والتربية المجتمعية والنفسية المنهزمة، إضافةً إلى الإعلام الموجّه - والسيطرة عليها والتفاعل معها بإيجابية والتحكّم بها وتوجيهها نحو الأفضل، وبالتالي تغيير بوصلتها من كونها أداةً سلبيةً مضرّةً بالمجتمع إلى جعلها عاملاً إيجابيّاً يساعد في التكامل المجتمعي؛ لأنّ الإنسان موجود اجتماعي يتأثر ويؤثر في محيطه، ومن هنا لا بدّ من:

1- التفكير الجدّي في كيفية تغيير العادات والتقاليد الاجتماعية - ولو على النحو البعيد - أو على أقلّ التقادير كيفية نقل هذه العادات والتقاليد من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية، ولو بالتركيز على العادات الإيجابية الموجودة ومحاربة العادات السلبية - للعلم أنّ العادات والتقاليد لم تكن وليدة اليوم، بل هي مسيرة أجيال مختلفة وعصور متمادية - والتعامل معها يحتاج إلى جهد مضاعف وقدرة على التحمّل؛ لأنّه من الممكن حصول معارضة شديدة جدًّا من قبل الناس الذين لا يرضون بتغيير هذه العادات والتقاليد، ولكن شيئاً فشيئاً وبالتدرّج يمكن تحوّل الجماعة المعارضة للتغيير فيها إلى جمع مقتنع برفض السلبية منها، والتركيز على العادات والتقاليد الإيجابية، ومن ثمّ ضخّ عادات تتواءم مع مقرّرات الفكر الديني السليم.

2- التركيز على ترسيخ التربية المجتمعية الصالحة وعلاجها يقع بالأساس على عاتق نخب المجتمع من خلال إنشاء عقل جمعي نخبوي ينهض بهذه المهمة يكون قائماً على أصول النظر والتحليل الصحيحين ومعرفة مشاكل الأمة واحتياجات الجماهير، والتوجّه نحو تكوين منظومة فكرية واسعة تتعامل على وفق الرؤية الواقعية المبنية على أسس عملية في التفاعل مع مختلف الأفكار الشائعة في الأوساط الاجتماعية، ومعالجة السلبيات من مخلفات العادات والتقاليد السائدة في المجتمع، وله القدرة والاستعداد على وضع المعالجات المناسبة لما يقتضيه الفكر الديني القائم على أساس الثقافة الإسلامية الصحيحة والمتوافقة مع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: 13].

3- وضع الخطط الكفيلة بمعالجة الانهزام النفسي والتأكيد على ترسيخ عوامل الثقة بالنفس، وتشجيع الكفاءات التي تظهر في المجتمع، وتوفير المراكز المتعدّدة التي تهتمّ بمهارات الأفراد؛ لضمان عاملين أساسيين هما:

الأول: إشغال الجمع الشعبي وتفرّقه في هذه المراكز، والثاني: التدرّج في الارتقاء بهم ولو على المدى البعيد وزرع الثقة بنفوسهم بأنهم أفراد ذوو قيمة في المجتمع، ويمكن أن ينتفع البلد بهم وبما يقومون به.

4- يعدّ الإعلام الموجّه أداةً فعالةً بيد أعداء الأمم وخصوصاً الإسلامية منها، فهو الذي يحرك الجماهير متى يشاء وكيف يشاء، وهو ما يسمّى بـ"العدوى الإعلامية (المعلوماتية)"، فإذا حاولنا السيطرة على هذه الأداة الفعالة وإعمالها لصالح الجمع العقلي النخبوي، فيمكن أن ترجّح الكفّة لصالح النخب، أو على أقلّ تقدير تشكيل جماعات تتحرّك بواسطة شبكات التواصل الاجتماعي لإيصال صوت الحقّ لجميع أفراد الأمة، بل والأمم الأخرى أيضاً، وتغطية هذه المواقع بالمعلومات

التي تساعد في بناء العقل الجمعي الواعي، وإحداث نقلة نوعية في فكر المجتمع. وبذلك نكون قد عملنا ولو على النحو البعيد في مواجهة كل العوامل المساعدة في نشوء العقل الجمعي اللاواعي.

ثانياً: فن إدارة العقل الجمعي اللاواعي وأساليب التحكم به

إذا لم تكن هنالك القدرة الكافية على مواجهة عوامل نشوء العقل الجمعي اللاواعي، فعلى أقل التقادير يجب أن تكون هنالك القدرة على إدارة هذا العقل والتحكم في تصرفاته، وذلك من خلال:

1- إيصال الجماهير إلى الشعور بالواقع الفكري السيئ الذي تعيشه الأمم والتفكير الجدي بحاجة الناس إلى قيادة نخبوية مخلصه وواعية ومدركة للمخاطر المحيطة بالمجتمع لتساعد في رفع تفكير الفرد من الضحالة والانحدار في المستوى وضعف الإحساس بالمسؤولية، وسيطرة الآراء والأفكار الساذجة والمتناقضة، وذلك من خلال السيطرة على مشاعر الناس وعواطفهم والعمل على رفع مستوى الثقة بالنفس عند الأشخاص، ورفع المستوى الفكري والثقافي وإيجاد سلوك مجتمعي منسجم مع مقررات الدين، وهذه من مهام العقل الجمعي النخبوي ومسؤولياته، فتكوين العقل الجمعي النخبوي أساساً ليتولى القيادة الفكرية الصالحة للأمة، ومن ثم يبنثق عنها نظام قادر على وضع الخطط اللازمة للعمل الجاد والسعي الحثيث في توعية العقل الجمعي الشعبي من خلال تفعيل دور العقل الفردي بما يصلحه لبناء المجتمع والارتقاء به على مستوى السلوك والإبداع العلمي والعملي، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [سورة آل عمران: 104].

2- العمل الجاد على تربية أجيال متعاقبة قائمة على أساس التفكير القويم بإنسانية الفرد وحاجاته، فأجيال الأمة موادّ خامّ متجدّدة قابلة للتغيير النوعي؛ إذ يمكن لها أن تتأثر وتؤثر في الواقع البعيد عن العادات والتقاليد الموروثة، ومن خلال ذلك يمكن التأهيل لبناء عقل جمعي واعٍ يؤمن بالتفكير المعمق والتحليل الجادّ لكل القضايا، والتوجّه نحو بناء مستقبل مشرق يحمل أسس الإسلام كأنطلاقة رئيسة نحو التكامل والريادة، والإكثار من التجارب المجتمعية التي تساعد في عملية التربية الجماعية «فالتجربة هي المربيّة الأولى والأخيرة للشعوب والقادرة على الكشف عن أخطائنا، ووحدها قادرة على إقناعنا بضرورة التغيير الإيجابي نحو التكامل، فالعمل الميداني هو وحده القادر على إعادة الشباب إلى الحقول والمصانع والشركات» [انظر: لوبون، سيكولوجية الجماهير، ص 109].

3- من الواضح أنّ العقل الجمعي اللاواعي يتأثر بالعواطف كثيراً فالمواقف التي مرّ بها هذا العقل والانقلابات التي حصلت له كانت مستندةً في الأساس وبصورة كبيرة إلى العواطف التي يحملها أفراد هذا العقل الجمعي وهذه نقطة ضعفه الرئيسية، فمن الممكن السيطرة على هذا العقل من خلال مناغمة العاطفة عند أفرادها واستخدامها وسيلةً لإدارته؛ «لأنّ المبالغة في العاطفة مدعّمة من قبل الحقيقة التالية: بما أنّ هذه العاطفة تنتشر بسرعة عن طريق التحريض والعدوى، فإنّ الاستحسان والقبول الذي يتلقاه يزيد من قوتها إلى حدّ كبير... وعنف عواطف الجماهير يزداد مبالغةً وتضحّماً لدى الجماهير غير المتجانسة بسبب انعدام المسؤولية» [انظر: المصدر السابق، ص 74]. فإذا عملنا على الوصول إلى عواطف الجماهير والنفوذ إليها والسيطرة عليها يمكننا هنا أن ندير حركة هذا العقل الجمعي اللاواعي.

4- بما أنّ أغلب بلداننا الإسلامية متكوّنة من خليط جماهيري هو عبارة عن قوميات وأديان ومذاهب، فلا بدّ في حالة تشكيل عقل جمعي واعٍ أن نتعامل مع الجميع على وفق المشتركات، وضبط جميع المنظّمات الدخيلة وغيرها، ومنعها من التلاعب بعقول الناس وتفرقتهم، خصوصاً العقل الجمعي الشعبوي الذي يتأثر بأضعف الأفكار وسهولة السيطرة على أذهان أفرادها، أضف إلى ذلك أنّ جميع الحكومات في البلاد الإسلامية ليست بإسلامية ولا تعمل بالإسلام، وهي التي تسيطر على وسائل الإعلام وتعمل على بثّ التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد؛ فلذا لا بدّ من تشكيل جبهة عريضة من الجماهير من غير تصادم معها؛ من أجل تغييرها بالطرق السلمية المتبعة وعدم ترك هذه الحكومات التلاعب بمصير الشعوب.

المبحث الخامس:

العقل الجمعي الواعي واللاواعي (القطيع) في ضوء النصوص الإسلامية

جاء القرآن الكريم وهو يحمل لكلّ موضوع بياناً مفصّلاً أو مجملاً، فلم يتغافل عن أيّ شيء يتعلّق بالإنسان، وما يحيط به من قريب أو بعيد، فقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل: 89]. وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 38]، وغيرها من الآيات، وكذلك ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من شيءٍ إلّا وفيه كتابٌ أو سنّة» [الكافي، ج 1، ص 114، باب الردّ إلى الكتاب والسنّة، الحديث 4]. وهذا يعني أنّ كلّ شيءٍ كان أو سيكون له إحصاء في الكتاب أو في السنّة الشريفة للمعصومين عليهم السلام، ومن الموضوعات التي طرحها القرآن أو السنّة الشريفة العقل الجمعي، سواء الواعي منه أم اللاواعي؛ إذ بيّن المعالم الكلّية لكلّ منهما مستعيناً بالأمثلة الواقعة في الأمم؛ ولهذا سنحاول ذكر الآيات والروايات المتعلقة بهذا الموضوع ليتّضح الأمر فيهما:

أولاً: العقل الجمعي الواعي واللاواعي في القرآن الكريم

لورجعنا إلى الآيات المباركة لوجدناها قد تناولت العقل الجمعي بقسميه - الواعي واللاواعي - في أكثر من مورد، وقد ركزت في ذكره وتكراره كثيرًا للخطورة الكبيرة التي يحملها بعضها خصوصًا العقل اللاواعي؛ لما يحصل من مآل الناس لو اتبعوه؛ لأنَّ الأكثرية تمثل هذا القسم، وخطورته تكمن في أنَّ كلَّ الصفات السلبية منطبقة عليهم؛ ولذلك عبّرت الآيات عن الأكثرية بأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة: 100]، أو ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة المائدة: 103]، أو ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: 37]، أو ﴿لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 70]. فمع كلِّ هذه الصفات التي يتّصف بها الأكثرية يصبح خطرهما واضحًا وأثرها بيّن؛ إذ بإمكانها أن تؤثر وبشكل كبير على أيّ حركة تحصل في المجتمع، بل وتغيّر مجرى الحياة في الأمة؛ ولهذا فإنّ من استطاع السيطرة على هذه الجموع الكبيرة وتمكن من تأسيس عقل جمعي منهم، كان بإمكانه إدارة الأمة وبناء فكر وثقافة خاصّة بهم تتلاءم مع ما يتبنّاه، ولأهمّية الأمر نجد أنّ القرآن الكريم قد أشار في آياته إلى القسمين من العقل الجمعي:

1- العقل الجمعي الواعي في القرآن

اهتمّ القرآن الكريم في آياته بالعقل الجمعي الواعي وميّزه عن غيره من خلال الدعوة إلى تشكيله في المجتمع الإنساني، فضلًا عن الإسلامي؛ لأنّه يمثل الجهة الراجحة التي يمكن أن تؤثر في الجماعة وترشدهم إلى طريق الحقّ، خصوصًا إذا كانت النخبة المؤمنة هي التي تقود الأمة، وهي الموجهة لبوصلة الناس نحو الهداية ونحو الإصلاح الفكري والإصلاح المجتمعي، فمن الآيات التي تدعو لتأسيس عقلٍ جمعيٍّ واعٍ هي:

أ- قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: 104] وهذه الآية المباركة بصدد الدعوة البناءة لتأسيس العقل الجمعي النخبوي يقع على عاتقه مسؤولية الدعوة إلى الخير والأمر بالإصلاح ونبذ الفساد لغرض تحقيق الغاية من ذلك وهي الفلاح، وقد أكّد القرآن في آية أخرى أنّ هذه الأمة التي يتحقّق فيها العقل الجمعي النخبوي الواعي كالجماعة المتبّعة للأنبياء ﷺ الذين يجتمعون على مقصد واحد [انظر: الطبرسي، مجمع البيان، ج 2، ص 357]. فهذه الأمة ليست تدعو إلى الخير وحسب بل هي خير الأمم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: 110]. فإن تركت هذه الفريضة المقدّسة فإنّ أشرار الأمة سيشكلون عقلاً جمعيًّا يتسلّطون معه على المجتمع، ويديرون أموره، وبالتالي لا ينفع الندم، وهو ما أشار

إليه الحديث الوارد عن محمد بن عمر بن عرفة قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم» [الكليني، الكافي، ج 5، ص 56، الحديث 3]. إذن القرآن يأمر أبناء الأمة بتشكيل عقل جمعي واج يدعو إلى الخير ليكون أثره الإيجابي كبيراً ليتمكن من إصلاح جميع الجوانب في المجتمع، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [سورة الحج: 41].

ب- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [سورة الصف: 14]. إن التكتل النخبوي الذي يتشكل في خضم الأحداث يمكن أن يؤسس لمرحلة بناء كبرى تتكفل في تحقيق الأهداف التي من أجلها تتحرك كل الجماعات، وهذا ما سعى له نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام في بناء عقل جمعي نخبوي يقوده الحواريون؛ من أجل تشكيل أيديولوجيا رائدة في المجتمع، يملكون فيها التأثير العميق والقدرة على تعميم أفكارهم الصحيحة التي تدفع الناس إلى تقبل الواقع التكاملي والتصديق بالمنهج البنائي على أنه أمر حتمي وطبيعي ومألوف؛ لتنتقل تلك الأفكار التي يؤسس لها من خلال التنشئة الاجتماعية إلى الأجيال القادمة؛ حتى تصبح هذه الأيديولوجيا جزءاً من معتقد الأمة المقدس والركيزة الأساسية للتماسك في البناء الفكري والاجتماعي لجميع الأفراد؛ ولهذا نجد أن العقل الجمعي الذي يبني من الجماعة الصالحة يكون تابعا للأهداف والرؤى الثابتة لا للأشخاص بما هم أشخاص كما عبر عن ذلك الحواريون عندما سألهم نبيهم: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾ فلم يدعوا أنهم أنصاره، وإنما قالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، فالهدف الأسمى الذي يتبعونه هو نصر دين الله، وهذا هو الغاية في أصل الدعوة إلى تشكيل العقل الجمعي النخبوي، فالأمر لا ينحصر بالحواريين، بل يعم الجميع في أن هنالك دعوة إلى نصر دين الله تعالى، وخصوصاً من المؤمنين، وقد أكد القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: 7]. ولا إشكال في أن عاقبة أصحاب العقل الجمعي النخبوي المؤمن هي البشارة بالفوز والهداية إلى الطريق الحق ويؤكد قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: 17 و 18]. فدعوة القرآن الكريم لم تنحصر في بناء جسور العقل الجمعي عند المجتمع المؤمن، بل تعدت ذلك إلى المجتمع العالمي، فدعاهم إلى تأسيس هذا العقل من خلال المشتركات التي تجمع أهل الأديان السماوية، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: 64]. ويتبين من ذلك أن القرآن

الكريم لم يغفل الإشارة إلى العقل الجمعي الواعي في آياته، بل تناوله في العديد منها، غير أنّ المقام لا يسع لتعداد المزيد، ونكتفي بما تمّ ذكره من الآيتين الدالّتين على هذا العقل.

2- العقل الجمعي اللاواعي في القرآن

لم يكن اهتمام القرآن الكريم مقتصرًا على ذكر العقل الجمعي الواعي في ضمن آياته، وإنّما تجاوز إلى بيان صور ومعالَم العقل الجمعي اللاواعي الذي يتأسّس في ظروف معيّنة وأسباب قد تشكّل العامل الرئيس في بنائه وتكوينه؛ لأنّه عقل تكمن مخاطره في تشكيكه، كما ويعدّ العقبة الكبرى - تاريخيًا - في البناء الإيجابي للمجتمع، فما من دعوة حقّ خرجت في الأمة إلّا وكان المخالف لها والمعتزّ عليها جهلة الناس وأصحاب المصالح والنفوذ، وقد حدّرت الآيات الكريمة من تأسيس هذا العقل والجري على وفقه، خصوصًا - كما ذكرنا في السابق - أنّ هذا العقل يمثل الأكثرية البشرية المنضوية تحته؛ ولهذا تعظم مخاطره وتتسع، وقد ذكر القرآن الكريم الكثير من المفاصد التي نشأت من خلال هذا العقل الجمعي في المجتمعات، وصوّرت لنا ذلك في آياته:

أ- قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [سورة المائدة: 100].
 وضع القرآن الكريم في آياته الميزان الأسمى لمقايسة الأعمال والتوجّهات على وفق ما يحقّقه ذلك الفعل أو التوجّه من كمالٍ ورفقٍ من خلال ماهيته وكيفيته لا كثرته أو قلّته - فالكثرة قد تكون مضرّةً ومرفوضةً وهو ما شاهدناه في الآيات المتقدمة - فلا يمكن مقايسة الحقّ بالباطل أو الخير بالشرّ أو الخبيث بالطيب؛ إذ لا يصحّ جعل أحدهما كالآخر، فالعمل الصالح مقدّم على العمل الطالح والحسنة راجحة على السيّئة؛ ولهذا أقرّ القرآن بعدم المساواة بين الأعمال وما تنتجها، فالكثرة أو القلّة ليست هي معيار الترجيح، وقد ضرب لنا من الأمثلة الكثيرة على ذلك، فقد قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة هود: 24]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل: 76]. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: 9]. فهذه الأمثلة القرآنية ناظرة إلى سبب الترجيح وهو الفعل نفسه لا كميته؛ لأنّ ثمة من يظنّ أنّ كثرة اتّباع الخبيث أو ما يسمّى بـ"الأكثرية" تجعله في مصافّ الطيب، كما يحدث أحيانًا أنّ نرى بعضهم يقع تحت تأثير الجماعة واتّجاه أهواء الأكثرية، ظانًا أنّه حيثما مالت الأكثرية كان ذلك دليلًا قاطعًا على صحّة ما تبنته، بينما الأمر ليس كذلك، والقضايا التي أيّدها الأكثرية وظهر بطلانها كثيرة جدًّا، وفي الواقع إنّ ما يميّز الخبيث من الطيب هو الأكثرية

الكيفية لا الكمية، أي أنّ المطلوب هو أفكار أقوى وأرفع وأسمى وأنقى لا كثرة المؤيدين، وهذه القضية لا تلائم أذواق بعض الناس في العصر الحاضر، بعد أنّ تشبعت أذهانهم نتيجة التلقين والضخّ في وسائل الإعلام بأنّ الأكثرية هي معيار معرفة الخبيث من الطيب، إلى حدّ الإيمان بأنّ "الحقّ" هو ما أرادته الأكثرية، و"الطيب" هو ما مالت إليه الأكثرية، والعكس هو الصحيح، فإنّ معظم مشاكل العالم ناتجة عن هذا اللون من التفكير. نعم، إذا تمتعت الأكثرية بقيادة صادقة وتعليمات صحيحة، بحيث تؤلّف أكثريةً ناضجةً بما للكلمة من معنّى، فيمكن حينئذٍ اعتبار هذه الأكثرية واتّجاهاتها مقياس تمييز الخبيث من الطيب، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلماته إذ قال: «وَالزُّمُو السَّوَادَ الْأَعْظَمَ؛ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجُمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّةَ مِنَ الْعَنَمِ لِلذُّبِّ» [نهج البلاغة، ص 184، من كلام له عليه السلام، الرقم: 127] فالمراد من السواد الأعظم الذي أمرنا الإمام عليه السلام بلزومه هو الأكثرية الحقّة التي تؤسّس للبناء التكاملي لا الأكثرية الفجّة غير الناضجة، وقد حدّر القرآن الكريم «الناس من الانجراف مع أكثرية الخبيثاء... الذين يحسبون أنّ كثرة الخبيث دليل على صحّة ما يذهبون إليه، فلا بدّ من الردّ على هؤلاء، وتعريفهم بأنّ معيار الخبائث والطيبة لم يكن في يوم من الأيام هو الأكثرية أو الأقلية، بل في كل زمان ومكان كان "الطيب" خيراً من "الخبيث"، وأنّ أصحاب الحجي والتبصر لا يندفعون بالكثرة، فهم يتجنّبون الخبيث دائماً، حتّى وإن تلوّث به جميع المحيطين بهم، ويندفعون نحو الطيب حتّى وإن ابتعد عنه الجميع» [انظر: مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، ج 4، ص 161].

لأنّ من الممكن أن تكون طاعة الناس وانقيادهم مع الجماعة التي اجتمع عليها الجمهور ورضيت بها العامّة والهمج والرعاء، وملكهم ورتاستهم لمن غلب على الأمر، واستولى على البلاد؛ لذا تحدّر الآية المباركة من الانصياع وراء الجماعة التي تمثّل الفساد والمؤسّسة للعقل الجمعي اللاواعي الذي عبّرت عنه بـ **﴿كثرة الخبيث﴾** فيلزم الوقوف عند ذلك الحدّ وعدم الانخراط مع أتباع هذا العقل وإن كانوا يمثلون الأكثرية؛ لأنّ المدار في الاتّباع هو معرفة الحقّ وتمييزه عن الباطل، فالحقّ لا يعرف بالرجال ولا بكثرة الأتباع، وهذا ما أوضحه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: «إنّ الحقّ والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحقّ تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله» [البلاذري، أنساب الأشراف، ج 2، ص 239]؛ ولذا فإنّ «إطاعة الأكثر سبب للضلالة وأنّ مخالفتهم سبب للهداية وعلى هذا لا يجوز متابعة الأكثر إلّا إذا كان هناك دليل على أحقيّتهم، فالمتبع حينئذٍ هو الدليل دون الكثرة من حيث هي» [المازندراني، شرح أصول الكافي، ج 1، ص 130]. وقد نتصّر الانصياع والإذعان الأعمى من قبل الأمة إمّا من خلال فرض الدخول في الجماعة كما في قول بعضهم لأمر المؤمنين عليّ عليه السلام: «رأيك مع الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك» [ابن أبي الحديد، شرح نهج

البلاغة، ج 7، ص 73]. أو من خلال تقليد آباؤهم ليصبح تقليدهم هذا عقلاً جمعياً كبيراً بحيث يلغى العقل الفردي وتعطل ملكة التفكير الناقد وتلغى الفطرة وتنحصر توجهات الأمة في آراء الجماعة المتمثلة في العقل الجمعي التابع لتقليد الآباء، فتتقاذفها الأهواء وتكون السيطرة والغلبة لهذه الجماعة أو تلك، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة المائدة: 104].

ب- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 52 و 53]. إن الله تعالى خلق الناس جميعاً من مورد واحد والأصل فيهم أبو البشر آدم ﷺ الذي كان بداية الحياة الإنسانية على هذه الأرض، وهو ما أشار إليه قول النبي محمد ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ آبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 73، ص 350، الحديث 13]. إلا أن هذا لم يمنع الناس من الاختلاف والافتراق في ضوء ميولهم وتوجهاتهم، فتقطَّعوا بينهم جماعاتٍ وتكتلاتٍ وأحزاباً فـ«كُلَّ جَمَاعَةٍ أَوْ حِزْبٍ يَتَحَدَّثُ بِمَا تَشْتَهِي نَفْسُهُ، وَيَصِرُّ عَلَىٰ رَأْيِهِ، فَهَذَا كَاسْتِعْرَاضِ لِحَقِيقَةِ نَفْسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ، هِيَ أَنَّ التَّعَصُّبَ الْجَاهِلِيَّ لِلْأَحْزَابِ وَالْفِئَاتِ يَمْنَعُ وَصُولَهَا إِلَى الْحَقِيقَةِ! لِأَنَّ كَلًّا مِنْهَا قَدْ اتَّخَذَ سَبِيلًا خَاصًّا بِهِ، وَأَصْبَحَ فِي قَوْعَةٍ لَا تَسْمَحُ لِنُورٍ جَدِيدٍ بِالْدُخُولِ إِلَى قَلْبِهِ، وَلَا بِنَسِيمٍ مَعْنُوي يَهْبِّ عَلَى رُوحِهِ لِيَكْشِفَ لَهَا حَقِيقَةً مِنَ الْحَقَائِقِ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ نَتَجَتُ عَنْ حُبِّ الذَّاتِ الْمَفْرُطِ وَالْعِنَادِ، وَهِيَ أَكْبَرُ عَدُوٍّ لِلْحَقِيقَةِ، وَلِوَحْدَةِ الْأُمَّةِ. إِنَّ الْعِتْرَازَ بِالنَّمَطِ الَّذِي تَعِيشُهُ كُلُّ فِئَةٍ وَاحْتِقَارِ سِوَاهَا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَصْمُ أَذْنِيهِ عَنِ كُلِّ صَوْتٍ يَخَالِفُ مَا اعْتَقَدَهُ، وَيُعْطِي رَأْسَهُ بَثْوَهُ، أَوْ يُلْجَأُ إِلَى الْفِرَارِ خَوْفًا مِنْ تَجَلِّي حَقِيقَةٍ عَلَى خِلَافِ مَا اعْتَادَ عَلَيْهِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَلَامَ نَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ ﷺ عِنْدَ بَيَانِ حَالِ مُشْرِكِي زَمَانِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي كُنَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [سورة نوح: 7]؛ ولذلك لا يمكن للإنسان الوصول بنفسه إلى الحق إلا بعد التخلص من حالة التعصب الجاهلي وإنهاء حالة العناد» [مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، ج 10، ص 467].

وكم من هؤلاء الناس الذين يتصفون بهذه الصفات في مجتمعاتنا، والذين ينساقون خلف مدعياتهم، ويتبنون أفكار غيرهم ممن يسيطر على مجريات حياتهم - سواءً السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية - فيفرحون بما عندهم، ويعتقدون أن هذا هو الحق، وعلى شاكلة هؤلاء كثير؛ لتتشكل من خلالها العقول الجمعية اللاواعية المبنية على وفق الاختلاف الحزبي أو غيره، والتي تتحرك في ضوء معطيات الجهل والعناد والتعصب والتأثير الإعلامي المناوئ، والآيات في هذا القسم كثيرة فنكتفي بما ذكرناه.

ثانياً: العقل الجمعي الواعي واللاواعي في السنة الشريفة

لم تغفل الأخبار الواردة عن المعصومين عليهم السلام الإشارة إلى مفهوم العقل الجمعي بكلا قسميه الواعي واللاواعي؛ إذ شاركت القرآن الكريم في بيان ذلك، وقد أوضحت هذه الروايات صور العقل الجمعي مظهرةً أهميته وخطورته في الوقت نفسه، وما يمكن أن يتسبب فيه من المشاكل التي قد تغير مسيرة الأمم، وخصوصاً إذا ركب موج القيادة والتوجيه من هو ليس أهلاً لذلك، وقاد الجمع من هو أجهل منهم، أو قادهم من يريد تحقيق أغراضه الشخصية؛ ولذا لا بد من عرض هذا العقل على الأحاديث لنعرف كيف تناولته في مضامينها:

1- العقل الجمعي الواعي في السنة الشريفة

تكمن الأهمية الأساسية للعقل الجمعي الواعي في القدرة على الاصطفاف الإيجابي الذي يساعد في تغيير القناعات لدى الشعوب والمشاركة في بناء الآراء الصحيحة، وتوحيد أنماط التفكير والمساهمة في تعديل توجهات أبناء الأمة، بحيث يصبح الحق هو الميزان الذي تنقاد إليه الأمور، خصوصاً إذا كانت القيمة المعرفية لأهداف هذا العقل الجمعي هي الموجه لا تباع الحق وإن قلّ الأتباع، فإنّ الكثرة ليست هي المعيار في الصحة والخطأ أو الحق والباطل؛ إذ من الممكن أن يكون الشخص الواحد يمثل أمة كاملة، كما وصف ذلك القرآن الكريم في نبيّ الله إبراهيم، فقد قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [سورة النحل: 120]؛ لذلك قال البعض إنّ: «الجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك» [اللالكاني، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ص 121]؛ لذلك يتوجب على قيادة العقل الجمعي الواعي أن تعرف الحق للآخرين الذين هم تحت مسؤوليتها، خصوصاً إذا كانت هذه القيادة - مضافاً إلى كونها تتمتع بالوعي - متديّنة وعالمة بالحقائق؛ لذلك نرى أنّ أهل البيت عليهم السلام أكدوا أنّ العقل الجمعي لا بدّ أن يكون مبنياً على أساس التفقه في الدين وإعمال العقل في تحليل القضايا، وكلّ ما من شأنه أن يساعد في التكامل الفكري والعقدي، حتّى وإن كان أصحاب العقل الجمعي الواعي قلّة في المجتمع، فعن مولى الموحدين عليّ عليه السلام في حديث طويل قال: «... ومن فرقة قد تفقهوا في الدين، وعرفوا سبب الإمامة، وأين محلّها، ولكنهم قليل في كثير، وخيار في كلّ زمان، وإن كثروا فهم أقلّ عدداً من الباقيين» [الطبري، المسترشد، ص 123]. فكثرة الأتباع ليست دليلاً على صحّة المدعى، كما أنّ قلّتهم ليست دليلاً على ضعفها أو فسادها، فلا الكثرة صائبون دائماً ولا القلّة مخطؤون كذلك؛ لأنّ المدار في الصواب والخطأ هو اتباع الحق، فلا يمكن للإنسان أن يلغي عقله أو يغمض عينه فيتبع الأشخاص من دون تمييز بين الحق والباطل - كما هو شأن جهلة عصرنا الحاضر - بل لا بدّ أن نعرف الحق بما هو حقٌّ فنكون من أهله ومناصريه، وأن نميّز

الباطل لبطلانه فنكره ونعاديّه، لا أن يكون المدار في الحقّ والباطل هو الأشخاص ومقاماتهم، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث المتقدّم إلى هذا المعنى وأنّ الحقّ والباطل لا يعرفان بالرجال. وعنه أيضًا عليه السلام قال: «من تعدّى الحقّ ضاق مذهبه، من جهل شيئًا عاداه، أسوأ الناس حالًا من لم يثق بأحد لسوء ظنّه، ولم يثق به أحد لسوء فعله، لا دليل أنصح من استماع الحقّ» [الكرجكي، كنز الفوائد، ص 283]. ولهذا كان العقل الجمعي - الذي هو تجميع عقول الناس لا استغفالهم وتبعيتهم - مهمًّا في بناء الأمة الناجحة والصالحة؛ لذلك نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام أثبتوا الركائز الأساسية لبناء العقل الجمعي الواعي من خلال الوجهة الأصلية لأفراد هذا الجمع وهي أتباع الحقّ.

2- العقل الجمعي اللاواعي في السنّة الشريفة

يتفاوت شدّة الخطاب وضعفه تبعًا لأهميّة موضوعه وما يمثّله من خطورة على مستقبل الأمة وما يرافقه من تبعات عليها؛ ولذا جاءت الأخبار في بيان حقيقة العقل الجمعي اللاواعي لتوضّح هاتين الميزتين (الأهميّة التي ينطوي عليها العقل الجمعي اللاواعي وخطورته)؛ ولهذا نرى أنّ كلّ حديث يتناول هذا العقل يشير إلى مخاطره وسلبياته والآثار المترتبة عليه، بل هنالك من الأخبار الواردة ما تحذّر منه ومن الاصطفاف معه، فقد ورد عن عليّ عليه السلام قوله: «الناس ثلاثة: فعالم ربّاني ومتعلّم على سبيل نجاه، وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق» [نهج البلاغة: الحكمة 147]. وهذا التقسيم الثلاثي هو قسمة حقيقية وقراءة للواقع المعاش في المجتمعات، فلا تجد مجتمعًا لا يتركّب من هذه الأقسام خصوصًا القسم الثالث الذي يضمّ النسبة الأكبر من أفراد؛ ولذا كان التحذير من الركوب في موجتهم والسير معهم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «كُنْ عالمًا ناطقًا أو مستمعًا واعيًّا، وإيّاك أن تكون الثالث» [الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص 391]. فمكمن الخطر كلّهُ يكون في زيادة عددهم وفي كثرتهم فتتسع الأضرار، وهو ما أشار إليه مولى الموحّدين عليه السلام في بيان صفة الغوغاء بقوله: «هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرّقوا لم يعرفوا». وقيل: بل ما قال عليه السلام: «هم الذين إذا اجتمعوا ضروا، وإذا تفرّقوا نفعوا. فقيل قد عرفنا مضرّة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ فقال: يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه» [نهج البلاغة: الحكمة 199]. وعنه عليه السلام قال: «... ومن همج رعاع لا نظام ولا اختيار عندهم، وهم الأعراب وأشبه الأعراب، أجلاف يتفرّقون من حيث يجتمعون، ويجتمعون من حيث يتفرّقون، لا تؤمن صولتهم إذا هاجوا، ولا يؤمن هيجهم إذا سكتوا، إن أحصنوا بغوا، وإن أجدبوا أثاروا» [الطبري، المسترشد، ص 123]. فإنّ هؤلاء يتحرّكون على

مقتضى جهلهم، ويفسدون بلا شعور ويتخطون الحدود، ويتجاوزون كل شيء بلا مسوغ لهم فهم: «لا شعور لهم ولا فكر، وجمعهم تُميت الحق وتحيي الباطل» [انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 16، ص 394]. فعلى جهلهم ينطبق قول الإمام عليّ عليه السلام: «أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علمًا؛ إذ قيمة كل امرئ ما يُحسّنه، وكفى بالعلم شرفًا أنّه يدّعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل ذمًا أنّه يبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نُسب إليه، والناس عالمٌ ومتعلّمٌ وسائر الناس همجٌ رُعا لا خير فيهم» [ابن الصبّاغ المالكي، الفصول المهمّة، ص 551].

المبحث السادس:

الآثار والتداعيات للعقل الجمعي الواعي واللاواعي على الفكر الديني

أولاً: الآثار والتداعيات الإيجابية في العقل الجمعي الواعي

1- أنّ النخبة المنضوية تحت هذا العقل يمكن أن تكتسب بواسطة العدد المتجمّع شعورًا عارمًا بالقوّة والسيطرة، وهذا ما يتيح لها طرح بعض الأفكار التي تتبناها النخبة، وبالتالي ستحصل على التأييد لما تريده وتحقق مصالحها مستندةً في ذلك على الآخرين؛ لذا فمن الممكن أن يستفاد الجمع النخبوي المؤمن من توجيه العقل الجمعي الشعبي إلى الإيمان بمقرّرات الفكر الديني من خلال توظيف المشتركات المتعلقة بالفكر الصحيح بين الأمم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: 64].

2- يمكن من خلال قيادة العقل الجمعي الواعي (قيادة النخبة) أو ممّن يملكون التأثير العميق في هذا العقل تعميم الأفكار السليمة والحقّة، وأن يشكّلوا أيديولوجيا صحيحةً في المجتمع تدفع الناس إلى تقبّل الواقع الجديد والتصديق بالمنهج التكاملي على أنّه أمر حتمي وطبيعي ومألوف؛ لتنتقل تلك الأفكار من خلال التنشئة الاجتماعية إلى الأجيال القادمة؛ حتّى تصبح هذه الأيديولوجيا جزءًا من معتقد الأمة وركيزةً أساسيةً في البناء الفكري والاجتماعي لجميع أفراد المجتمع؛ ليكون العقل الجمعي الواعي ذا تأثير واضح في اتّجاه سلوكيات الأفراد؛ لأنّها تشترك مع قناعاتهم وأفكارهم ليشكّل وعيًا جمعيًا أيديولوجيًا ينبع من الإيمان بالرؤى التي أجمعوا على أحقيّتها، كالإيمان مثلاً بفكرة المصلح العالمي الذي يقود البشرية على وفق مبدأ العدل والمساواة وإنصاف الناس ومحاربة الظلم والفساد، والتأسيس لهذه النظرية الإسلامية التي ستقود الأمم في آخر الزمان على أنّها الفكرة الصحيحة التي يسعى الناس لتحقيقها؛ لهذا أصبحت المطالبة بالمصلح العالمي أملاً يرغب فيه الناس جميعًا؛ لأنّه «يملا الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورًا» [الصدوق، التوحيد، ص 82، باب التوحيد ونفي التشبيه، الحديث 73].

3- الترابط بين العقول الجمعية وقدرتها على التناسق فيما تحمله من مفاهيم مشتركة، ومن ثمّ ترجع في هذا إلى إحكام المقاييس الصحيحة في الأعمال والقناعات؛ للمحافظة على التوازن للسلوك الاجتماعي العام؛ لتستطيع هذه الجماعة إصلاح الأوضاع أو تغييرها بالحكمة والموعظة الحسنة التي تؤدّي إلى نصره الحق، وإدارة المجتمع بالأمانة والعدل والإنصاف؛ لتسير الجماعة في حركتها سيراً طبيعياً سويّاً قائماً على الأفكار التي آمنت بها، وما سنّتها من أحكام ليصبح قول الله تعالى ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: 7] منطلقاً لتحقيق الغايات الدينية التي أريد لها أن تحيا في الأرض.

ثانياً: الآثار والتداعيات السلبية في العقل الجمعي اللاواعي

1- العدوى العقلية أو الذهنية لدى الجمهور، فإنّ كلّ عاطفة أو فعل هما معديان بطبيعتهما إلى حدّ أنّ الفرد يضخّي بسهولة كبيرة بمصلحته الشخصية من أجل المصلحة الجماعية، وهذه قابلية معاكسة لطبيعته، فتتلاشى الشخصية الواعية لديه وتهيمن الشخصية اللاواعية، فيتوجّه الجميع ضمن الخطّ نفسه بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار. [انظر: لوبون، سيكولوجية الجماهير، ص 58] ومن هنا يمكن تجاوب العقل الفردي المبدع أو العقل النخبوي للحلول الوسطية الإرضائية، وهذا مكنم الخطر؛ لأنّ ذلك سيؤدّي إلى بداية الانحدار الحضاري للأمة عن المستوى المناسب لمرحلتها أو اللائق بعقيدها ومبدئها في الحياة؛ لأنّ عدم إدراك الفرد لحقيقة أنّ تأثير العقل الجمعي اللاواعي قد يقوده لإرادياً إلى فعل أشياء واكتساب سلوكيات تلغي الوعي والضمير، فتجعل الهدف الأسمى (هدف الجماعة) فوق هدف الفرد، وتعدّ كلّ مخالف لهذا الهدف - وإن كان اختلافه معه حول أشياء ثانوية - العدو.

2- يوجد في الأفراد المنخرطين في الجماعة صفات خصوصية لكلّ منهم، ولكن قد يوضع الفرد في موقف معيّن يفقد فيه شخصيته الواعية، وبالتالي يخضع لكلّ الاقتراحات الصادرة من المجموع، وبذلك قد يقترف أعمالاً مخالفةً لطبعه الحقيقي وعاداته، فتتحول عندئذٍ الأفكار المحرّض عليها إلى فعل وممارسة مباشرة، فلا يعود الفرد هو نفسه، وإنما يصبح عبارةً عن إنسان آلي ما عادت إرادته بقيادة على أن تقوده. [انظر: المصدر السابق، ص 59]

3- أنّ تنازل الفرد عن عقله الشخصي يعني أنّه سيفقد إرادته واختياره، وبالتالي سيكون هنالك إهمال لتفكيره وقراره الشخصي وذوبانه في الآخرين، ممّا يضيّع عليه الكثير من القرارات الصائبة؛ إذ من الممكن أن يكون هنالك قرار أفضل من القرار الذي اتّخذته الجماعة فيضيّع على نفسه فرصة الحصول على القرار الأفضل باتّباعه للجماعة. [انظر: المصدر السابق، ص 60]

أضف الى ذلك أنّ المتسلّط في العقل الجمعي سيحوّل الإبداع في العقل الفردي إلى كسل وعزلة، بحيث يُنزل شخصية الفرد من مستوى الذكاء الواعي إلى كونها شخصيةً ضعيفةً تختفي فيها مقوّمات الفكر المنتج، وينخفض فيها التفكير الإيجابي وجوانب التحليل العلمي، فبمجرّد أن ينخرط الفرد في الجمهور فإنّ مستواه الفكري ينخفض الى حدّ بعيدٍ. [انظر: المصدر السابق، ص 76]

4- عدم امتلاك الجماهير الشعبية - المجتمعة خارج دائرة اختصاصهم - أيّة فكرة واضحة ومعقّنة، وبالتالي فهم عاجزون عن قيادة أنفسهم بأنفسهم، ومن هنا يأتي دور القائد الذي يقودهم، والذي يلعب دورًا كبيرًا بالنسبة للجماهير البشرية؛ إذ أنّ إرادته تمثّل النواة التي تتحلّق حولها الآراء وتنصهر فيها، والجمهور عبارة عن قطع لا يستطيع الاستغناء عن سيّده، فالكثرة تصغي دائمًا للإنسان المزوّد بإرادة قويّة، وبما أنّ الأفراد المجتمعين في الجمهور يفقدون كلّ إرادة، فإنّهم يتجهون غريزيًا نحو ذلك الشخص الذي يمتلكها. [انظر: المصدر السابق، ص 127 - 129]

فلو كان القائد لهذه الجماهير على مرتبة عالية من الرقيّ والكمال، وعلى درجة عالية من الإيمان ويضع كلّ شيء في موضعه وبحسب الموازين الشرعية، فهذا سيجعل من مسيرة الجماهير أكثر تكاملًا، ويتكامل معهم العقل الجمعي.

5- أنّ سرعة انفعال الجماهير بالأطروحات والأفكار التي تعرض لهم، وسرعة تأثيرهم وتأثرهم وتصديقهم بالشعارات المطروحة، والتي تستجدي عواطفهم سوف تدفع بهم إلى التعصّب والاستبداد، وهذا ما سيؤثّر كثيرًا على مستوى أخلاقياتهم؛ لأنّها تنخفض في الاجتماع قطعًا خصوصًا الاجتماع غير المنضبط.

الخاتمة

ومما تقدّم من الكلام يمكن أن نصل إلى:

- 1- أنّ مدار العقل الجمعي دائر بين الإيجاب والسلب، فليس كلّ جمع عقلي يكون دائماً سلبياً ومرفوضاً، فهنالك عقل جمعي إيجابي يطلق عليه "العقل الجمعي النخبوي" وهو مقبول ومطلوب في الأمة.
- 2- هنالك تمايز بين العقل الجمعي الواعي والعقل الجمعي اللاواعي، وهذا التمايز هو الذي فرّق بينهما من جميع الجوانب.
- 3- تمّ تقسيم العقل الجمعي بإطلاقه إلى عدّة أقسام ينصرف بعضها إلى العقل الجمعي الواعي وبعضها الآخر إلى العقل الجمعي اللاواعي.
- 4- هنالك عوامل أساسية ساعدت في نشوء كلّ من العقل الجمعي الواعي واللاواعي.
- 5- يمكن مواجهة العقل الجمعي اللاواعي الذي يشكّل خطراً حقيقياً على الأمة والمجتمع والسيطرة عليه من خلال بعض الأمور.
- 6- من الممكن إدارة العقل الجمعي اللاواعي وتحويله من كونه سلبياً مطلقاً إلى كونه عاملاً مساعداً في تحقيق أهداف العقل الجمعي الواعي "النخبوي".
- 7- لم يغفل القرآن الكريم والأحاديث الشريفة عن ذكر العقل الجمعي الواعي واللاواعي في مضامينهما، مع الإشارة إلى مدح أحدهما وذم الآخر منهما.
- 8- توجد الكثير من الآثار والتداعيات المرافقة لوجود العقل الجمعي، وهذه الآثار والتداعيات دائرة بين السلب والإيجاب.

قائمة المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة

- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، الناشر: آداب الحوزة، قم، 1363 ش.
- حبيش، طه، الأخلاق في إطار النظرية التطورية، الناشر: كلية أصول الدين، القاهرة، 2010م.
- دوركايم، إميل، الانتحار، ترجمة: حسن عودة، الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011 م.
- بدوي، حمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، الناشر: مكتبة لبنان، بيروت، ط 2، 1982 م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح في اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1407 هـ.
- آرثر، توني، قوّة عقلك الباطن، ترجمة فريق الترجمة بالدار، مراجعة وتصحيح: حمزة عبد الصمد، الناشر: مكتبة الهلال، القاهرة، ط 2، 2010 م.
- جيمس، ك. فان فليت، القوّة الخفيّة للعقل الباطن، الناشر: مكتبة جرير، السعودية، ط 3، 2008 م.
- الوردي، علي، خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة، الناشر: دار الوراق، لندن، ط 2، 1996 م.
- العيسوي، عبد الرحمن، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، الناشر: دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 1984 م.
- اللالكاني، هبة الله، شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة، السعودية، ط 8، 1423 هـ.
- لوبون، غوستاف، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، الناشر: دار الساقى، بيروت، ط 1، 1991 م.
- دوركايم، إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، راجعه محمد بدوي، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988 م.
- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1414 هـ.
- المجلسي، محمداقصر، بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، الناشر: مؤسّسة الوفاء ودار الفكر، بيروت، ط 2، 1403 هـ.

- الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، الناشر: مرتضوي، طهران، ناصر خسرو، ط 2، 1362 ش.
- ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1421 هـ.
- الكليبي، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 5، 1363 ش.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1، 1415 هـ.
- الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قم، ط 1، 1384 ش.
- المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، تعليقات: الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح: علي عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1421 هـ.
- المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، بيروت، ط 1، 1378 هـ.
- الطبري الشيعي، محمد بن جرير، المسترشد، تحقيق: الشيخ أحمد المحمودي، الناشر: مؤسسة الثقافة الإسلامية لكوشانبور، قم، ط 1، 1415 هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط 1، 1417 هـ.
- الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد، الناشر: مكتبة المصطفوي، قم، ط 2، 1369 ش.
- خان، وحيد الدين، الإسلام يتحدّى.. مدخل علمي إلى الإيمان، تعريب د. ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق د. عبد الصبور شاهين، الناشر: مكتبة الرسالة، الكويت 1974 م.
- الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، الناشر: دار الحديث، قم، ط 1، 1376 ش.
- الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط 1، 1362 ش.
- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1، 1411 هـ.